٦- فصل

خلافة هارون الرشيد بن محمد المهدى[١]

هو أخو موسى الهادى وهو الخامس من بنى العباس

[٦١] **قال إبراهيم الموصلى[٢] فى تهنئة الخلافة** : عندما ولى الرشيد بعد أخيه موسى الهادى :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة ... فلما أتى هارون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

[٦٢] و[قيل] : قدم أعرابى حين ولى هارون الخلافة فقيل له : فيم جئت ؟ قال : أتيت برسالة ، قال : ائت بها ، قال : أتانى آت فى منامى فقال ائت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الأبيات :

توارثت الخلافة من قريش ... تزف إليكما أبدا عروسا

---

(١) هارون بن محمد بن أبى جعفر المنصور ، الرشيد : خامس خلفاء العباسيين ، وأشهرهم وعلامتهم كان عالما بالأدب وأخبار العرب ، والحديث والفقه ، ازدهرت الدولة الإسلامية فى عهده وبلغت أوجها ، تولى الخلافة بعد اغتيال أخيه الهادى ، حارب البيزنطيين وهو لايزال حاكما على المقاطعات الغربية وبلغ أبواب القسطنطينية . ازدهرت فى عهده التجارة والأدب والعلوم . وهو من نكب بالبرامكة بعدما لعبت دورا هاما فى الحكم ، ت[١٩٣هـ - ٨٠٩م] . انظر : البداية والنهاية (٢١٣/١٠) ، كامل لابن الأثير (٣٣١/٢) ، تاريخ اليعقوبى (١٣٩/٣) .

(٢) إبراهيم الموصلى : من أشهر موسيقى العرب ، برع فى الغناء والعزف على العود ، نادم المهدى والهادى والرشيد وعرف بالنديم ، ت[٧٤٢م : ٨٠٤م] .

إلى هـارون تهـدى بعـد موسـى تميس ومالهـا أن لاتميسـا[1]

فأعطاه الرشيد عطاء جزيلا وصرفه .

[٦٣] **بويع له بالخلافة** فى الليلة التى توفـى فيهـا أخـوه ، وولـد فـى تلك الليلة المأمون ، وكانت ليلة عظيمة لم ير مثلها فـى بنـى العبـاس مـات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ؛ وولد فيهـا خليفـة ولمـا بويـع الرشـيد قلـد جعفر بن يحيـى بـن خـالد بـن برمـك[2] وزارتـه ؛ وسـيأتى إيقـاع الرشـيد بالبرامكة وسبب ذلك .

[٦٤] **ويحكى** : أن هـارون الرشـيد مـر فـى بعـض الأيـام وبصحبتـه جعفر البرمكى وإذا هو بعدة بنات يستقين الماء فعرج عليهن يريـد الشـرب وإذا إحداهن تقول:

قولـى لطيفـك ينثنـى عـن مضجعـى وقـت المنـام
كـى أسـتريح وتنطفـى نـار تـأجج فـى العظـام
دنـف تقلبـه الأكـف علـى بسـاط مـن سـقام
أمـا أنـا فكمـا علمـت فهـل لوصلـك مبـن دوام

---

(١) تَميس : مشى وهو يتمايل ويتبختر .

(٢) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى ، أبو الفضل : وزير الرشيد العباسى ولـد ونشأ فى بغداد ، واستوزره هارون الرشيد ملقيا إليه أمور الحكم وأعبائه ، وكان يدعوه : أخى، فانقادت له الدولة ، يحكم بما شاء فلا ترد أحكامه ، إلى أن نقم الرشيد به وبالبرامكة، وهو أحد الموصوفين بفصاحة المنطق وبلاغة القول وكرم اليد والنفس، ت[١٨٧هـ = ٨٠٣م] . انظر مقدمة ابن خلدون ص٢٢ ، البداية والنهاية (١٠/١٨٩،١٩٤) ، وفيات الأعيان (١/١٠٥) ، تاريخ بغداد (٧/١٥٢) .

فأعجب أمير المؤمنين ملاحتها وفصاحتها ، فقال لها : يابنت الكرام هذا من قولك أم من منقولك ؟ قالت : من قولى ، قال : إن كان كلامك صحيحا فامسكى المعنى وغيرى القافية فأنشدت تقول :

قولى لطيفك ينثنى ... عن مضجعى وقت الوسن[1]
كى أستريح وتنطفى ... نار تأجج فى البدن[2]
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من شجن
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من ثمن

فقال لها : والآخر مسروق ، قالت : بلى كلامى ، فقال : إن كان كلامك أيضا فامسكى المعنى وغيرى القافية فقالت :

قولى لطيفك ينثنى ... عن مضجعى وقت الرقاد
كى أستريح وتنطفى ... نار تأجج فى الفؤاد
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من حداد
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من سداد

فقال لها : والآخر مسروق ، فقالت بل : كلامى ، فقال لها : إن كان كلامك فامسكى المعنى وغيرى القافية فقالت :

قولى لطيفك ينثنى ... عن مضجعى وقت الهجوع[3]
كى أستريح وتنطقى ... نار تأجج فى الضلوع
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من دموع

---

(١) الوسن ، وَسِنَ : أخذه ثقل النوم .

(٢) تأجج : التهب .

(٣) الهجوع : النوم .

أمـــا أنـــا فكمـــا علمـــــت فهـــل لوصلـــك مـــن رجـــوع

فقال لها أمير المؤمنين : أنت من أى هذا الحى ؟ قالت : من أوسطه بيتا وأعلاه عمودا ، فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحى ؛ ثم قالت : وأنت من أى راعى الخيل ؟ فقال : من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة فقبلت الأرض وقالت : أيد الله أمير المؤمنين ودعت له ثم انصرفت مع بنات العرب . فقال الخليفة : لجعفر لابد من أخذها ، فتوجه جعفر إلى أبيها وقال له : أمير المؤمنين يريد بنتك ، فقال : حبا وكرامة ، تهدى جارية إلى أمير المؤمنين مولانا ، ثم جهزها وحملها إليه فتزوجها ودخل بها ، فكانت عنده من أعز نسائه ، وأعطى والدهاما يستره بين العرب من الأنعام ، ثم بعد مدة انتقل والدها بالوفاة إلى رحمة الله تعالى ، فورد على الخليفة خبر وفاته فدخل عليها وهو كئيب ، فلما شاهدته وعليه الكآبة نهضت ودخلت إلى حجرتها وقلعت كل ماعليها من الثياب الفاخرة ولبست ثياب الحزن وأقامت النعى له، فقيل لها : ماسبب هذا ؟ فقالت : مات والدى فمضوا إلى الخليفة فأخبروه ، فقام وأتى إليها وسألها من أعلمها بهذا الخبر ؟ قالت: وجهك ياأمير المؤمنين ! قال : كيف ذلك ؟ قالت : منذ أنا عندك مارأيتك هكذا ولم يكن لى من أخاف عليه إلا والدى لكبره ؛ ويعيش رأسك أنت ياأمير المؤمنين ؛ فترغرغت عيناه بالدموع وعزاها فيه وأقامت مدة وهى حزينة على والدها ثم لحقت به رحمة الله عليهم أجمعين .

[٦٥] **ويحكى** : أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة ، فقام يتمشى فى قصره بين المقاصير[1] ، فرأى جارية من جواريه نائمة

---

(١) مَقَاصِيرُ : طرق

فأعجبته ، فداس على رجلها فانتبهت فرأته أمير المؤمنين فاستحيت منه وقالت : ياأمين الله ماهذا الخبر ، فأجابها بقوله :

قلت ضيف طارق فى أرضكم　　هل تضيفوه إلى وقت السحر

فأجابته تقول :

بسرور وهناء سيدى　　أخدم الضيف بسمعى والبصر

فبات عندها إلى الصباح ، فسأل أمير المؤمنين من بالباب من الشعراء؟ قيل له: أبو نواس ، فأمر به فدخل عليه فقال له : هات على ، ياأمين الله ماهذا الخبر ، فأنشأ يقول :

طال ليلى حين وافانى السهر　　فتفكرت فأحسنت الفكر
قمت أمشى فى المجالى ساعة　　ثم أجرى فى مقاصير الحجر
فإذا وجه جميل مشرق　　زانه الرحمن من بين البشر
فلمست الرجل منها موطئا　　فدنت منى ومدت للبصر
وأشارت لى بقول مفصح　　ياأمين الله ماهذا الخبر
قلت ضيف طارق فى أرضكم　　هل تضيفوه إلى وقت السحر
فأجابت بكل سرور سيدى　　أخدم الضيف بسمعى والبصر

قال فتعجب أمير المؤمنين من ذلك وأمر له بصلة .

[٦٦] **ويحكى** : أن هارون الرشيد هجر جارية له ، ثم لقيها فى بعض الليالى فى القصر سكرى تدور فى جوانب القصر وعليها مطرف خز[1] وهى تسحب أذيالها من التيه والعجب ، وسقط رداؤها عن منكبيها

---

(١) مُطْرَف خَزّ : رداء من الحرير .

والريح أبان نهديها كأنهما رمانتان ، ولها ردفان ثقيلان ، فراودها عن نفسها ، فقالت : ياأمير المؤمنين هجرتنى هذه المدة وليس لى علم بملاقاتك فانظرنى إلى غد حتى أتهيأ وآتيك ، فلما أصبح قال : للحاجب لاتدع أحدا يدخل على إلا فلانة وانتظرها فلم تجئ فقام ودخل عليها وسألها إنجاز الموعد ، فقالت : ياأمير المؤمنين كلام الليل يمحوه النهار . فقام واستدعى من بالباب من الشعراء فدخل عليه أبو نواس ، والرقاشى[1] ، وأبو مصعب[2] فقال لهم : هاتوا علىّ : كلام الليل يمحوه النهار ، فقال الرقاشى : أنا قائل فى ذلك ثلاثة أبيات وأنشأ يقول:

أتسلوها وقلبك مستطار ... وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركتك صبا مستهاما ... فتاه لاتزور ولاتزار
فولت وانثنت تيها وقالت ... كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو مصعب : وأنا قائل فى ذلك ثلاثة أبيات وأنشأ يقول :

فهل لوصلك من دوام ... لما وسعتك فى بغداد دار
أما يكفيك أن العين عبرى ... ومن ذكراك فى الأحشاء نار
تبسمت الفتاة بغير ضحك ... كلام الليل يمحوه النهار

---

(١) الفضل بن عبد الصمد بن الفضل الرقاشى ، أبو العباس : شاعر من أهل البصرة ، فارسى الأصل . انتقل إلى بغداد ومدح الخلفاء . قال المبرد : كان الفضل يظهر الغنى وهو فقير ، ويظهر العز وهو ذليل ، ويتكثر وهو قليل ، فكانت الشعراء تهجوه ، ت[٢٠٠هـ - ٨١٥م]. انظر : فوات الوفيات (١٢٥/٢) ، تاريخ بغداد (٣٤٥/١٢) .

(٢) مصعب بن الحسين البصرى ، أبو الحسين ؛ المعروف : بمصعب الماجن : شاعر من أهل البصرة . كان وراقا ، استفرغ شعره فى وصف الغلمان ، ت[٢٥٠هـ-٨٦٥م] .

وقال أبو نواس : وأنا قائل فى ذلك أربعة أبيات وأنشأيقول :

وخود أقبلت فى القصر سكرى ... ولكن زين السكر الوقار
وهز الريح أردافا ثقالا ... وغصنا فيه رمان صغار
وقد سقط الردا عن منكبيها ... من التخميش وانحل الإزار[1]
فقلت الوعد سيدتى فقالت ... كلام الليل يمحوه النهار

فقال الرشيد : قاتلك الله كأنك كنت معنا أو مطلعا علينا ، وأمر لكلٍ بخلعة سنية[2] ، خمسة آلاف درهم ، ولأبى نواس بعشرة آلاف درهم، انتهى[3] .

[٦٧] **وذكر الخطيب[4] فى بعض مصنفاته** : أن الرشيد دخل يوما وقت الظهر إلى مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها فوجدها تغتسل ، فلما رأته تجللت[5] بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئاً فأعجبه ذلك الفعل واستحسنه ثم عاد إلى مجلسه وقال : من بالباب من الشعراء ؟ قالوا له : أبو نواس ، وبشار[6] فقال : ليحضرا جميعا فأحضرا فقال الرشيد: ليقل كل منكما أبياتا توافق مافى نفسى فأنشأ بشار يقول :

---

(١) التخميش : اللطم على الوجه .

(٢) خلعة سنية : رفيعة القدر .

(٣) ذكرت القصة فى العقد الفريد لابن عبد ربه (٤٠٩/٦) . ولكن مع الأمين .

(٤) الخطيب ، أبو بكر أحمد : محدث ، أصولى ، مؤرخ . ترحل وسمع الحديث . له تاريخ بغداد ، ت[٤٦٤هـ=١٠٧٢م] .

(٥) تَجَلَّلت : تغطت .

(٦) بشار بن برد بن يرجوخ العقيلى ، أبو معاذ : شاعر غزلى مشهور ، ت[١٧٨هـ] . انظر : شذرات الذهب (٣٦٤/١) .

تحببتكم والقلب صار إليكموا ... بنفسي ذاك المنزل المتحبب
إذا ذكروا الهجران لاعن ملالة ... وذكراهم ينمي إلى محبب
وقالوا تحببنا ولاقرب بيننا ... فكيف وأنتم حاحتى تتحنبوا
على أنهم أحلى من الشهد عندنا ... وأعذب من ماء الحياة وأطيب

فقال : أحسنت ولكن ماأصبت مافى نفسى ، فقل : أنت ياأبا نواس فجعل يقول[1] :

نضت عنها القميص لصب ماء ... فورد خدها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرت ... بمعتدل أرق من الهواء
ومدت راحة كالماء منها ... إلى ماء معد فى إناء
فلما أن قضت وطراو همت ... على عجل لتأخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التدانى ... فأسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليل ... فظل الماء يجرى تحت ماء
فسبحان الإله وقد براها ... كأحسن مايكون من النساء

فقال الرشيد : سيفا ونطعا ، فقال له : ولم ياأمير المؤمنين ؟ قال : أمعنا كنت؟ قال : لا والله ولكن شيء خطر ببالى فأمر له بأربعة آلاف درهم وصرفه أهـ .

[٦٨] ويحكى : أن أمير المؤمنين الرشيد أرق ذات ليلة أرقا شديدا ، فقام من فراشه وتمشى من مقصورة إلى مقصورة وقلقه زائد ونفسه محصورة، فلما أصبح قال: علىَّ بالأصمعى فخرج الطواشى[2] إلى البوابين

---

(١) انظر : ديوانه ص ٢٨ .

(٢) الطَّوَاشِيّ : من جملة الخدم الخاصة .

فقال لهم : يقول لكم أمير المؤمنين : ارسلوا أحداً خلف الأصمعى فلما حضر ، أعلم الخليفة به فأجلسه ورحب به ، وقال: يا أصمعى أريد منك أن تحدثنى بأجود ماسمعت من أخبار النساء وأشعارهن ، فقال : سمعا وطاعة ، لقد سمعت كثيرا ولم يعجبنى سوى ثلاثة أبيات أنشدهن ثلاث بنات ، فقال له : حدثنى حديثهن فقال : اعلم ياأمير المؤمنين إنى توجهت سنة إلى البصرة فاشتد على الحر ، فطلبت مقيلا أقيل فيه فلم أجد ، فبينما أنا أتلفت يمينا وشمالا ، إذا أنا بساباط[1] مكنوس مرشوش ، وفية دكة من خشب وعليها شباك مفتوح تفوح منه رائحة المسك ، فدخلت الساباط وجلست على الدكة وأردت الاضطجاع، فسمعت كلاما عذبا من فم جارية حسناء وهى تقول : ياأختى إنا جلسنا يومنا هذا على وجه الصبوح تعالين نطرح ثلثمائة دينار ، وكل منا تقول بيتا من الشعر ، فكل من قالت البيت الأعذب الأملح كانت الثلثمائة دينار لها ، فقلن : حبا وكرامة ، فقالت الكبرى :

عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ولوزارنى مستيقظا كان أعجبا

فقالت الوسطى :

ومازارنى فى النوم الا خياله فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا

فقالت الصغرى :

بنفسى وأهلى من أرى كل ليلة ضجيعى ورياه من المسك أطيبا

فقلت : إن كان لهذا المقال جمال تم الأمر على كل حال فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف ، وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه جارية وهى

---

(١) سَابَاط : سقيفة بين دارين تحتها طريق .

تقول : اجلس ياشيخ فطلعت على الدكة ثانيا وجلست ، فدفعت إلى ورقة فنظرت خطا فى نهاية الحسن مستقيم الألفات مجوف الها آت مدور الواوات مضمونه ، نعلم الشيخ ، أطال الله بقاءه ، أننا ثلاث بنات أخوات جلسنا على وجه الصبوح وطرحنا ثلثمائة دينار ، وشرطنا أن كل من قالت البيت الأعذب الأملح كان لها الثلثمائة دينار وقد جعلناك الحكم فى ذلك فاحكم بما تراه والسلام ، فقلت للجارية : على بدواة وقرطاس فغابت قليلا وخرجت إلى بدواة مفضضة وأقلام مذهبة فأنشأت أقول :

أحدث عن خود تحدثن مرة ... حديث امرئ ساس الأمور وجربا
ثلاث كبكرات الصحارى جحافل ... حللن بقلب للمشوق معذبا
خلون وقدا نامت عيون كثيرة ... من الراقدين المشتهين التغيبا
فبحن بما يخفين من داخل الحشا ... نعم واتخذن الشعر لهوا وملعبا
فقالت عروب ذات عز عزيزة ... وتبسم عن عذب المقالة أنسبا
عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ... ولو زارنى مستيقظا كان أعجبا
فلما انقضى مازخرفت وتضاحكت ... تنفست الوسطى وقالت تطربا
ومازارنى فى النوم إلا خياله ... فقلت أهلا وسهلا ومرحبا
وأحسنت الصغرى وقالت مجيبة ... بلفظ لها قد كان أشهى وأعذبا
بنفسى وأهلى من أرى كل ليلة ... ضجيعى ورياه من المسك أطيبا
فلما تدبرت الذى قلن وانبرى ... لى الحكم لم أترك لذى اللب متعبا
حكمن لصغراهن فى الشعر أننى ... رأيت الذى قالت جميلا وأصوبا

قال الأصمعى ثم دفعت الرقعة إلى الجارية ، فلما صعدت إلى القصر فإذا برقص وتصفيق ودنيا دانية وقيامة قائمة ، فقلت : مابقى لى إقامة فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف وإذا بالجارية تنادى وتقول : اجلس

ياأصمعى، فقلت : ومن أعلمك أننى الأصمعى ؟ فقالت ياشيخ إن خفى علينا اسمك فما خفى علينا نظمك ، فجلست وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه الجارية الأولى ، وعلى يدها طبق من فاكهة وطبق من حلوى فتفكهت وتحليت وشكرت صنعها وأردت الانصراف ، وإذا بالجارية تنادى وتقول: اجلس ياأصمعى ، فرفعت بصرى إليها فنظرت كفا أحمر فى كم أصفر فخلته البدر يشرق من تحت الغمام ، ورمت لى بصرة فيها ثلثمائة دينار ، وقالت : هذا صار لى وهو منى لك هبة فى نظير حكومتك فقال لى : أمير المؤمنين لأى شيء حكمت للصغرى ولم تحكم للكبرى ولا للوسطى ، فقلت له : ياأمير المؤمنين إن بيت الكبرى قالت : عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ، وهو محمول معلق على شرط وقد لايقع . وأما الوسطى : فمر بها طيف خيال فى النوم فسلمت عليه . وبيت الصغرى : ذكرت أنها ضاجعته مضاجعة حقيقية وشمت منه أنفاسا أطيب من المسك وفدته بنفسها وأهلها ولايفدى بالنفس إلا من هو أعز من النفس ، فقال الخليفة : أحسنت ياأصمعى ثم دفع إلى ثلثمائة دينار فأخذتها وانصرفت ، فكنت أقول : لله درك من شعر أخذت فى حكومتى منه ثلثمائة دينار وفى حكايته مثلها والله أعلم .

[٦٩] **ومما حكى عن الأصمعى فى نوادره قال** : سهرت ليلة عند الرشيد فى الرقة فقال لى : من معك ياعبد الله يؤنسك ، فقلت ياأمير المؤمنين مالى أنيس غير الوحدة ، فأمسك وأقبل فى حديثه ماشاء الله ، ثم نهض ونهض من بحضرته ؛ فلما صرت إلى منزلى وإذا بخادم الأمير يقرع الباب ، فخرجت فإذا ضوء شمع وضجة وغوغاء ومعه جارية فلما رآنى الخادم دنا منى وقبل يدى وقال لى : يقول لك أمير المؤمنين : قد أمرنا لك

بمن يؤنسك وهى جارية من خواصه وشيء من المال ، فشكرت أمير المؤمنين ، ودعوت له وتقدم الخادم بإدخال الجارية ومعها من الالآت والخدم والجوارى والفرش مالم أر مثله إلا عند أمير المؤمنين ، ثم ودعنى الخادم وانصرف ؛ فلما نظرت إلى الجارية رأيتها أحسن الناس وجها ، وأكملهم قدا وشكلا وظرفا ، وأكثرهم مجونا ، فداخلنى لها هيبة وانقباض فقالت ماهذا الحياء البارد السمج الذى لاوجه له ، أين ملحك ونوادرك ! ثم قالت لجارية من الجوارى: هات ماعندك فجاءت بأحسن مايكون من ألوان الطعام فأكلنا ، وهى مع ذلك تباسطنى وتؤانسنى بالحديث والملاعبة، ثم دعت بالشراب فشربت وسقتنى، ثم قالت : مابقى بعد الأكل والشرب إلا النوم والخلوة ، فقامت ولبست من الثياب مأرادت وألبستنى ثيابا فاخرة مبيضة ، وتفرق من كان عندنا ، ثم اضطجعت إلى جانبى فلما جمعنا الفراش اصابنى من الحصر وانقطاع الإنعاظ ورخاوة الاير مالم أكن أعهده قبل ذلك ، فجعلت تقلبه بيدها وتغمزه فلا يزداد إلا انكماشا وموتا ، فلما أعيتها الحيلة فيه ، ويئست من قيامه ، ومضى من الليل أكثره ، قالت : عظم الله أجرك فى إيرك ، ثم نهضت ولبست ثياب الحداد ودعت بسفط فأخرجت منه مناديل صغار ، أو حنوطا و قالت : نم على ظهرك يابطال فاستولى على الخجل ، حتى أنى لم أقدر أخالفها فى شيء مما تأمرنى به فى جميع ماتفعله فى ، فغسلته وحنطته وكفنته بتلك المناديل ، فلما فرغت همت بجواريها وقامت معهن فى بكاء ، ونحيب ، ونوح ، وندب ، وصراخ بأشد مايكون ومازلن على ذلك إلى وقت السحر، ثم قالت : مابقى إلا مايتولاه الرجال من الصلاة والدفن وولت عنى، فقمت وأنا أخزى خلق الله حالا فلبست ثيابى وصليت الفجر،

وسرت من وقتى وساعتى إلى الرشيد ، فأنكر الحاجب حضورى فى ذلك الوقت وأعلم الرشيد بى فأذن لى فدخلت وهو قاعد فى مصلاه ، فقال لى : ويحك مادهاك فى هذا الوقت ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين خبرى عجيب وأمرى غريب فبالله عليك ياأمير المؤمنين ألا مارحمتينى وأرحتنى من هذه الجارية التى أنفذتها إلى ، فلا حاجة لى بها ، فقال أمير المؤمنين : ومالسبب لذلك ومالخبر الذى دهاك وليس لها عندك حين من الزمان ؟ فشرحت له القصة من أولها إلى آخرها ، حتى بلغت إلى إقامة الصلاة فاشتد ضحكه حتى أنه كاد أن يستلقى على قفاه ، وسمعت الضحك من كل ناحية فى الدار من الجوارى وغيرهن ، ثم قال نحن إلى هذه أحوج منك إليها وقد كنا غافلين ، عنها ثم إنه أمر بحملها إلى داره وعوضنى عنها خمسين ألف درهم وترك جميع ماحل معها فى منزلى وخرجت مجردة ، فحظيت بعد ذلك عند الرشيد حتى انه لم يتقدم عليها أحد من نظائرها وسميت من وقتها هذا بالأصمعة إلى أن توفيت رحمة الله عليهم أجمعين .

[٧٠] **وعن أبى إسحاق إبراهيم الموصلى قال**[1] : استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من الأيام للانفراد بجوارى وإخوانى فاذن لى فى يوم السبت، فأتيت منزلى وأخذت فى اصلاح طعامى وشرابى ومااحتجت إليه وأمرت البوابين بغلق الأبواب ، وأن لايأذنوا لأحد بالدخول علىَّ ، فبينما أنا فى مجلس والحريم قد حففن بى ، وإذا بشيخ ذى هيبة وجمال وعليه جبتان قصيرتان وقميص ناعم وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة من فضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق ، فداخلنى غيظ

---

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص٥٥ .

عظيم لدخلوه على وهممت بطرد البوابين ، فسلم عليَّ أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ يحدثني بأحاديث العرب وأشعارهم حتى ذهب مابى من الغضب وظننت أن غلمانى تحروا مسرتى لإدخال مثله عليَّ لأدبه وظرفه ، فقلت : هل لك فى الطعام ؟ قال : لاحاجة لى فيه قلت فالشراب ؟ قال : ذلك إليك فشربت رطلا وسقيته مثله ، ثم قال ياأبا إسحاق هل لك أن تغنينا شيئا فنسمع من صنعتك ماقد فقت به العام والخاص ، فغاظنى قوله ثم سهلت الأمر على نفسى فأخذت العود وضربت وغنيت فقال أحسنت ياإبراهيم فازددت غيظا ، فقلت: مارضى بما فعله فى دخوله بغير إذنى واقتراحه على حتى سمانى باسمى ولم يجهل مخاطبتى ، ثم قال: هل تزيد ونكافئك فتذممت وأخذت العود وغنيت وتحفظت فيما غنيته وقمت به قياما تاما لقوله ونكافئك فطرب ، وقال : أحسنت ياسيدى، ثم قال : أتأذن لى فى الغناء ؟ فقلت : شأنك واستضعفت عقله فى أن يغنى بحضرتى بعد الذى سمعه منى فأخذ العود ، وحسه فوالله خلت أن العود ينطق بلسان عربى ، اندفع يغنى هذه الأبيات :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى ... بها كبد ليست بذات قروح
أباها على الناس لايشترونها ... ومن يشترى ذا علة بصحيح
أئن من الشوق الذى فى جوانحى ... أنين غصيص بالشراب طريح[1]

قال إبراهيم : فوالله لقد ظننت أن الأبواب والحيطان وكل مافى البيت تجيبه وتغنى معه وبقيت مبهوتا لاأستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى ، ثم اندفع يغنى فقال :

---

(١) غَصٌّ : اعترض الشراب حلقه فمنعه من التنفس .

ألا ياحمامات اللوى عدن عودة ... فإنى إلى أصواتكن حزين
فعدن ولما عدن كدن يمتننى ... وكدت بأسرار لهن أبين
دعوت بترداد الهدير كأنما ... شربن الحميا أو بهن جنون
فلم ترعينى مثلهن حمائما ... ولم تدمع لهن عيون

قال ثم سكت قليلا وغنى هذه الأبيات :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد ... فقد زادنى مسراك وجدا على وجدى
لئن هتفت ورقاء فى رونق الضحى ... على فنن من غصن بان ومن رند
بكيت كما يبكى الوليد صبابة ... وأبديت من شكواى مالم أكن أبدى
وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وأن البعد يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كانت من تهواه بغير ذى ود

ثم قال : يا إبراهيم هذا الغناء الماخورى خذه وانح نحوه فى غنائك وعلمه جواريك فقلت : أعده على ، فقال : لست تحتاج إلى إعادة فقد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين يدى فارتعت منه وقمت إلى السيف وجردته ثم غدوت نحو أبواب الحريم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى : أى شيء سمعتن فقلن سمعنا غناء أطيب شيء وأحسنه فخرجت متحيرا إلى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البوابين عن الشيخ فقالوا: أى شيخ فو الله مادخل اليوم إليك أحد ، فرجعت أتأمل أمره ، فإذا هو قد هتف بى من جوانب البيت ، وقال : لابأس عليك ياأبا إسحاق فإنما هو أبو مرة[1] قد كنت نديمك اليوم فلا تفزع ، فركبت إلى الرشيد فأخبرته الخبر ، فقال :

---

(١) أبو مرة : كنية الشيطان .

أعد الأصوات التى قد أخذتها فأخذت العود وضربت فإذا هى راسخة فى صدرى ، فطرب الرشيد عليها وجعل يشرب ولم يكن له همة على الشراب، وقال كأن الشيخ علم أنك قد أخذت الأصوات وفرغت منها فليته متعنا بنفسه يوما واحدا ، كما متعك ثم أمر لى بصلة فأخذتها وانصرفت ، انتهى .

[٧١] و[قيل] : قال الرشيد يوما للفضل بن يحيى ، وهو بالرقة : قد قدم إسماعيل بن صالح بن على وهو صديقك ، وأريد أن أراه فقال : إن أخاه عبد الملك فى حبسك وقد نهاه أن يجيئك ، قال الرشيد : فإنى أتعلل حتى يجيئنى عائدا فتعلل ، فقال الفضل لإسماعيل : ألا تعود أمير المؤمنين قال : بلى فجاءه عائدا فأجلسه ثم دعا بالغداء فأكل إسماعيل بين يديه ، فقال له الرشيد : كأنى قد نشطت برؤيتك إلى شرب قدح فشرب وسقاه ، ثم أمر فأخرج جوارى يغنين وضربت ستارة وأمر بسقيه فلما شرب أخذ الرشيد العود من يد جارية ووضعه فى حجر إسماعيل ، وجعل فى عنقه سبحة وفيها عشر حبات من در شراؤها بثلاثين ألف دينار ، وقال : غن يا إسماعيل وكفر عن يمينك بثمن هذه السبحة فاندفع يغنى شعر الوليد بن يزيد فى غالية أخت عمر بن عبد العزيز ، وكانت تحته وهى التى ينسب إليها سوق الغالية فقال :

فأقسم ماكفاى مدت لريبة ... ولاحملتنى نحو فاحشة رجلى
ولاقادنى سمعى ولابصرى لها ... ولادلنى رأيى عليها ولاعقلى
واعلم أنى لم تصبنى مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلى

فسمع الرشيد أحسن غناء بأحسن صوت ، فقال : الرمح ياغلام فجيء بالرمح فعقد له لواء على إمارة مصر ، قال إسماعيل : فوليتها سنتين فأوسعتهم عدلا وانصرفت بخمسمائة ألف دينار وبلغ أخاه عبد الملك ولايته، فقال : غنى والله الخبيث لهم ليس هو بصالح ، انتهى .

[٧٢] ويروى : أنه لما دخل هارون الرشيد إلى مكة شرفها الله تعالى، وابتدأ بالطواف ومنع الخاص والعام من ذلك لينفرد بالطواف سبقة أعرابى فشق ذلك على الرشيد فالتفت إلى حاجبه منكرا عليه ، فقال الحاجب للأعرابى : تخل عن الطواف حتى يطوف أمير المؤمنين فقال الأعرابى : إن الله قد ساوى بين الإمام والرعية فى هذا المقام فقال عز وجل ﴿**سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾ [الحج : ٢٥] فلما سمع الرشيد من الأعرابى ذلك راعه أمره ، فأمر حاجبه بالكف عنه، ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابى فاستلمه ثم أتى الرشيد إلى المقام للمصلى فسبقه الأعرابى فصلى فيه؛ فلما فرغ الرشيد من صلاته قال لحاجبه : ائتنى بهذا الأعرابى فأتاه الحاجب فقال : أجب أمير المؤمنين فقال : مالى اليه من حاجة إن كان له حاجة فهو أحق بالقيام إلى والسعى ، فقام الرشيد حتى وقف بإزاء الأعرابى وسلم عليه فرد عليه السلام فقال له الرشيد : ياأخا العرب اجلس هنا بأمرك، فقال الأعرابى : ليس البيت بيتى ولا الحرم حرمى وكلنا فيه سواء ، فإن شئت تجلس وإن شئت تنصرف ، قال الراوى : فعظم ذلك على الرشيد وسمع مالم يكن فى ذهنه وماظن أنه يواجهه أحد بمثل هذا الكلام، فجلس الرشيد وقال : ياأعرابى أريد أن أسألك عن فرضك إن أنت قمت به فأنت بغيره أقوم ، وإن أنت عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز ، فقال الأعرابى : سؤالك هذا سؤال تعلم أم سؤال تعنت ! فتعجب الرشيد من

سرعة جوابه ، وقال : بل سؤال تعلم . فقال له الأعرابى : قم فاجلس مقام السائل من المسئول ، قال : فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدى الأعرابى ، فقال : قد جلست فاسأل عما بدالك، فقال له : أخبرنى عما افترض الله عليك ؟ فقال له : تسألنى عن أى فرض : عن فرض واحد ، أم عن خمسة ، أم عن سبعة عشر ، أم عن أربعة وثلاثين ، أم عن خمسة وثمانين ، أم عن واحدة فى طول العمر ، أم عن واحدة من أربعين ، أم عن خمسة من مائتين ، قال : فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه استهزاء به، ثم قال : له سألتك عن فرضك فاتيتنى بحساب الدهر ، قال : يا هارون لولا أن الدين بالحساب لما أخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة، فقال﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ [الأنبياء: ٤٧] قال : فظهر الغضب فى وجه الرشيد واحمرت عيناه حين قال : ياهارون ولم يقل ياأمير المؤمنين وبلغ مبلغا شديدا ، غير أن الله تعالى عصمه منه ، وحال بينه وبينه لما علم أنه هو الذى أنطق الأعرابى بذلك، فقال له الرشيد : يا أعرابى أن فسرت ماقلت نجوت والا أمرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة ، فقال له الحاجب : ياأمير المؤمنين أعف عنه وهبه لله تعالى ولهذا المقام الشريف ، قال : فضحك الأعرابى من قولهما حتى استلقى على قفاه ، فقال : مم تضحك ؟ قال : عجبا منكما إذ لا أدرى أيكما أجهل الذى يستوهب أجلا قد حضر أم الذى يستعجل أجلا لم يحض ، قال: فهال الرشيد ماسمعه منه وهانت نفسه عليه ، ثم قال الأعرابى : أما سؤالك عما افترض الله علىَّ ، فقد افترض على فرائض كثيرة فقولى لك عن فرض واحد : فهو دين الإسلام . وأما قولى لك عن خمسة : فهى الصلوات . وأما قولى لك عن سبعة عشر : فهى سبعة عشر ركعة . وأما

قولى لك عن أربعة وثلاثين : فهى السجدات . وأما قولى لك عن خمسة وثمانين : فهى التكبيرات . وأما قولى لك عن واحدة فى طول العمر: فهى حجة الإسلام واحدة فى طول العمر . كله وأما قولى لك عن واحدة من أربعين : فهى زكاة الشياه شاة من أربعين ؟ وأما قولى لك خمس من مائتين: فهى زكاة الورق . قال : فامتلأ الرشيد فرحا وسرورا من تفسير هذه المسائل ومن حسن كلام الأعرابى وعظم الأعرابى فى عينه وتبدل بغضه محبة، ثم قال الأعرابى : سألتنى فأجبتك وأنا أريد أن أسألك فأجبنى، قال: قل فقال الأعرابى : ماتقول فى رجل نظر إلى امراة وقت صلاة الفجر فكانت عليه محرمة، فلما كان وقت الظهر حلت له فلما كان وقت العصر حرمت عليه ، فلما كان وقت المغرب حلت له ، فلما كان وقت العشاء حرمت عليه ، فلما كان وقت الصبح حلت له ، فلما كان وقت الظهر حرمت عليه ، فلما كان وقت العصر حلت له ، فلما كان وقت المغرب حرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء حلت له ؟ فقال : والله ياأخا العرب لقد أوقعتنى فى بحر لم يخلصنى منه غيرك ، فقال له : أنت خليفة ليس فوقك شيء ولاينبغى أن تعجز عن مسألة فكيف عجزت عن مسألتى وأنا رجل بدوى لاقدر لى فقال له الرشيد : قد عظم قدرك العلم ورفع ذكرك ، فاشتهى إكراما لى ولهذا المقام تفسير ذلك ، فقال : حبا وكرامة، ولكن على شرط أن تجبر الكسير وترحم الفقير ولاتزدرى بالحقير ، فقال: حبا وكرامة ثم قال : إن قولى لك رجل نظر إلى امرأة وقت صلاة الفجر فكانت عليه حراما ؛ فهو رجل نظر إلى أمة غيره وقت الفجر فهى حرام عليه ، فلما كان وقت الظهر اشتراها فحلت له ، فلما كان وقت العصر أعتقها فحرمت عليه ، فلما كان وقت المغرب تزوجها فحلت له ، فلما كان وقت العشاء طلقها فحرمت عليه ، فلما كان وقت الفجر راجعها

فحلت له ، فلما كان وقت الظهر ظاهر منها فحرمت عليه ، فلما كان وقت العصر أعتق عنها فحلت له ، فلما كان وقت المغرب ارتد عن الاسلام فحرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء تاب ورجع إلى الإسلام فحلت له . قال : فأغتبط وفرح به واشتد إعجابه ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما حضرت قال لاحاجة لى بها ردها إلى أصحابها ، فقال له: أريد أن أجرى لك جراية تكفيك مدة حياتك ، قال : الذى أجرى عليك يجرى على، قال : فإن كان عليك دين قضيناه عنك ، قال : لا ولم يقبل منه شيئاً ثم أنشد يقول :

هب الدنيا تواتينا سنينا ... فتكدر ساعة وتلذ حينا
فما أبغى لشئ ليس يبقى ... وأتركه غدا للوارثينا
كأنى بالتراب على يحثى ... وبالإخوان حولى ناديينا
ويوم تزفر النيران فيه ... وتقسم جهرة للسامعينا
وعزة خالقى وجلال ربى ... لانتقمن منهم أجمعينا
وقد شاب الصغير بغير ذنب ... فكيف يكون حال المجرمينا

فلما فرغ من إنشاده ، تأوه وسأله عن أهله وبلاده فأخبره أنه موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنهم أجمعين[1] ، وكان يتزيا بزى أعرابى زهدا فى الدنيا ، وتباعدا عنها، فقام إليه الرشيد وقبل مابين عينيه ثم قرأ ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام: ١٢٤] وانصرف رحمة الله عليهم أجمعين .

---

(١) موسى الكاظم : سابع الأئمة الاثنى عشر ، عند الإمامية كان من سادات بنى هاشم ومن أعبد أهل زمانه ، وأحد كبار العلماء الأجواد ، ت[١٨٣هـ - ٧٩٩م] . انظر : وفيات الأعيان (١٣١/٢) ، فرق الشيعة ص٨١ .

[٧٣] وقال السجستاني[١] : أرق الرشيد ليلة ، فوجه إلى الأصمعي وإلى حسين الخليع[٢] فأحضرهما وقال : عللاني ، وابدأ أنت ياحسين .

فقال حسين : نعم ياأمير المؤمنين خرجت في بعض السنين منحدرا إلى البصرة ممتدحا محمد بن سليمان الزينبي[٣] بقصيدة ، فقبلها وأمرني بالمقام فخرجت ذات يوم إلى المربد وجعلت المهالبة طريقي ، فأصابني حر شديد فدنوت من باب دار كبيرة لأستسقي ، فإذا بجارية كأنها قضيب ينثني واسعة العينين ، زجاء الحاجبين[٤] مفتوحة الجبين ، عليها قميص جلناري ، ورداء عدني قد غلب شدة بياض بدنها على حمرة قميصها ،

---

(١) سهل بن محمد بن عثمان الجشمي ، السجستاني : من كبار العلماء في اللغة والشعر. من أهل البصرة ، كان المبرد يلازمه القراءة عليه . من مصنفاته "المعمرين"، "الشوق إلى الوطن" ، الفرق بين الآدميين وكل ذي روح" ، ت [٢٤٨هـ =٨٦٢م] . انظر : الفهرست لابن النديم (٥٨/١) ، بغية الوعاة ص ٢٥٦ .

(٢) الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلي ، أبو علي : شاعر من ندماء الخلفاء العباسيين، وكان يلقب : بالأشقر ، أصله من خرسان . ولده ونشأ في البصرة ، وشعره رقيق عذب . وأتهم أبو نواس بأخذ معانيه في الخمر . أخباره كثيرة ، ت [٢٥٠هـ=٨٦٤م] . انظر : وفيات الأعيان (١٥٤/٢) .

(٣) محمد بن سليمان بن علي العباسي ، أبو عبد الله : أمير البصرة . وليها في أيام المهدي . قال ابن الأثير : كان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان وكور الأهواز وفارس .عُزل سنة [١٦٤هـ] وأعاده الرشيد وزوجه أخته العباسة بنت المهدي [١٧٢هـ] .وكان غنيا من النبلاء ، ت [١٧٣هـ=٧٨٩م] .انظر الكامل لابن الأثير (١٧/٦) ، تاريخ بغداد (٢٩١/٥) .

(٤) زَجّاء الحاجبين : حاجبان رقيقان في طولهما .

تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين ، وبطن كطى القباطى[1] ، وعكن[2] كالقراطيس ، لها جمة[3] جعدت[4] بالمسك محشوة ، وهى ياأمير المؤمنين متقلدة خرزا[5] من الذهب والجوهر يزهو بين نهديها ، وعلى صحن جبينها طرة كالسبج[6] ، وحاجبان مقرونان، وعينان نجلاوان[7] ، وخدان أسيلان[8] ، وأنف أقنى[9] تحته ثغر كاللؤلؤ ، وأسنان كالدر وقد غلب عليها الطيب ، وهى حيرانة ذاهبة فى الدهليز ورائحة تخطر على أكباد محبيها فى مشيتها وقد خالط أصوات نعلها خلاخيلها فهى كما قال الشاعر فيها:

كل جزء من محاسنها كائن من حسنها مثلا

فهبتها ياأمير المؤمنين ، ثم دنوت منها لأسلم عليها ، فإذا الدهليز والدار والشارع قد عبق بالمسك ، فسلمت عليها فردت بلسان منكسر وقلب حزين حريق مسعر ، فقلت لها : ياسيدتى إنى شيخ غريب أصابنى

---

(١) القباطى : ثياب من الكتان .

(٢) عكن : ما تثنى من لحم البطن .

(٣) جُمَّة : مجتمع شعر الرأس .

(٤) جَعُدَت : ضد استرسل .

(٥) الخَرَزَ : الحَبّ المثقوب من المعادن ، والزجاج ، وغيرهما ، تُنظم من قلائد .

(٦) الطرة : شعر الناصية ، لونه أسود كالسبج وهو نوع من الكساء .

(٧) عينان نجلاوان : واسعتان .

(٨) أسيل : أملس .

(٩) أنف أقنى : ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه .

عطش أفتأمرين بشربة من ماء تؤجرين عليها ، قالت : إليك عنى ياشيخ ، فإنى مشغولة عن الماء وادخار الزاد ، قلت : لأى علة ياسيدتى : قالت : لأنى عاشقة لمن لاينصفنى وأريد من لايريدنى ، ومع ذلك فإنى ممتحنة برقباء[1] فوق رقباء ، قلت : وهل ياسيدتى على بسيطة الأرض من تريدينه ولايريدك ؟ قالت : نعم ، وذلك لفضل ماركب فيه من الجمال والكمال والدلال ، قلت : وما وقوفك فى هذا الدهليز ؟ قالت : ههنا طريقه وهذا أوان احتيازه، فقلت : ياسيدتى اجتمعتما فى وقت من الأوقات ووجب حديث فى هذا القرب فتنفست الصعداء وأرخت دموعها على خدها كطل[2] سقط على ورد ثم أنشأت تقول :

وكنا كغصنى بانة فوق روضة ... نشم جنى اللذات فى عيشة رغد

فافرد هذا الغصن من ذاك قاطع ... فيا من رأى فردا يحن إلى فرد

قلت : ياهذه فما بلغ من عشقك لهذا الفتى ، قالت : أرى الشمس على حائطهم أحسب أنها هو وربما أراد بغتة فأبهت ، ويهرب الدم والروح من جسدى وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل ، فقلت لها : فاعذرينى فأنت على مابك من الصبا وشغل البال بالهوى وانتحال الجسم وضعف القوى أرى بك من اللون ورقة البشرة ، فكيف لو لم يمسك الهوى لكنت مفتنة فى أرض البصرة ، قالت : والله قبل محبتى هذا الغلام كنت تحفة الدلال والجمال والكمال ، ولقد فتنت جميع ملوك البصرة، حتى فتنتنى هذا الغلام .

---

(١) رقباء ، جمع رقيب : الحارس .

(٢) الطل : الندى

قلت : ياهذه فما الذى فرق بينكما ؟ قالت : نوائب الدهر ، ولحديثى وحديثه شأن من الشئون وذلك أنى كنت قعدت فى يوم نيروز[1] ودعوت عدة من مستظرفات البصرة من النساء الجميلات ، وكانت فيهن الحوراء جارية شيراز ، وكان شراؤها عليه من عمان بثمانية آلاف درهم ، وكانت بى ولعة[2] ، فلما دخلت رمت نفسها علىَّ تقطعنى قرصا وعضا ، ثم خلونا نتمرن القهوة[3] إلى أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا ، وكانت تلاعبنى وألاعبها فتارة أنا فوقها وتارة هى فوقى ، فحملها السكر إلى أن ضربت يدها إلى تكتى[4] فحلتها من غير ريبة كانت بينا ونزلت سراويلى ملاعبة ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا حبيبى فرأى ذلك فاشمأز لذلك وصدف[5] عنى صدوف المهرة العربية إذ سمعت صلاصل لجامها فولى خارجا، فأنا ياشيخ منذ ثلاث سنين أسأل جمعيته ، فلا ينظر إلى بطرف ولايكتب لى بحرف ، ولايكلم لى رسولا ولايسمع منى قليلا ، فقلت لها : ياهذه مِنَ العرب هو أم مِنَ العجم ؟ فقالت : ويحك هو من حملة ملوك البصرة ، فقلت لها : شيخ هو أم شاب ؛ فنظرت إلى شزراً[6] . وقالت :

---

(١) نيروز : يوم الفرح .

(٢) وَلِعة : متعلقة به من شدة الحب .

(٣) نتمرن القهوة : نتناول شرب الخمر ، قيل : سميت بذلك لأن شاربها يُقْهى عن الطعام ، أى تقل شهوته .

(٤) التِكَّة : رباط السراويل ، جمعها تِكَك .

(٥) صَدَفَ : أعرض وانصرف .

(٦) شَزَرَ : نظرت إليه بجانب عينها مع إعراض .

إنك أحمق هو مثل القمر ليلة البدر أجرد[1] أمرد[2] له طرة كحلك الغراب[3]، لايعيبه شيء غير انحرافه عني ، قلت لها : ماسمه قالت : ماذا تصنع به ؟ قلت : أجتهد في لقائه فأتعرف الفصل بينكما ، قالت: على شرط أن تحمل إليه رقعة ، قلت : لاأكره ذلك .

فقالت : اسمه ضمرة بن المغيرة ويكنى بأبي السخاء ، وقصره بالمربد ، ثم صاحت في الدار ياجواري الدواة والقرطاس ، وشمرت عن ساعدين كأنهما طوقان من ففته وكتبت بعد البسملة سيدي ترك الدعاء في صدر رقعتي ينبئ عن تقصيري ودعائي أن دعوته هجنة[2] ورعونة[4] ولولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير ، لكان لما تكلفته خادمتك من كتابة هذه الرقعة معنى مع يأسها منك لعلمها تركك الجواب ، سيدي جد بنظرة وقت احتيازك في الشارع إلى الدهليز[5] تحيي بها نفسا ميتة ، واخطط بخط يدك بسطها الله بكل فضيلة رقعة ، واجعلها عوضا عن تلك الخاوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنت ذاكر لها ، سيدي ألست لك محبة مدنفة ، فإن رجعت إلى -الآيسة- كنت لك شاكرة ، وبعد خادمة والسلام .

---

(١) أجرد : الخالي من الشعر ، جمعها جرد .

(٢) أمْرَد : الشاب طَرَّ شاربه ولم تنبت لحيته ، وجمعها مرد .

(٣) حلك : شديدة السواد .

(٢) الهُجْنَة من الكلام : العيب والقبح .

(٤) الرُعُونَة : الحمق .

(٥) الدِهْلِيز : ما بين الباب والدار : المسلك الطويل الضيق ، وجمعها دهاليز .

فتناولت الكتاب وخرجت فأصبحت غدوة إلى باب محمد بن سليمان ، فوجدت مجلسا محتفلا بالملوك ورأيت غلاما زان المجلس وفاق على من فيه جمالا وبهجة قد رفعه الأمير فوقه، فسألت عنه فإذا هو ضمرة بن المغيرة ، فقلت فى نفسى: بالحقيقة حل بالمسكينة ماحل بها ، ثم قمت وقصدت المربد ووقفت على باب داره فإذا هو قد ورد فى موكب ، فوثبت إليه وبالغت فى الدعاء له وناولته الرقعة ؛ فلما قرأها وفهم معناها ، قال : ياشيخ قد استبدلنا بها فهل لك أن تنظر إلى البديل ، قلت: نعم فصاح فى الدار اخرجوا إلى المربد ، فإذا أنا بجارية : خابوطية الكمين، ناهدة الثديين تمشى مشية مستوحل من غير وحل[1] ، فناولها الرقعة وقال : أجيبى عنها، فلما قرأتها اصفرت وعرقت وقالت : ياشيخ استغفرالله مما جئت به .

فخرجت ياأمير المؤمنين وأنا أحر رجلى ، حتى أتيتها واستأذنت عليها ، فقالت : ما وراءك ؟ فقلت : البؤس واليأس ، فقالت : ماعليك منه فأين الله والقدر ، ثم أمرت لى بخمسمائة دينار، ثم جزت بعد أيام ببابها فوجدت غلمانا وفرسانا ، فدخلت فإذا أصحاب ضمرة يسألونها الرجوع إليه ، فقالت : لا والله لانظرت له وجها ، فسجدت لله ياأمير المؤمنين شماتة بضمرة ونفرته من الجارية فاوردت علىَّ منه رقعة فإذا فيها بعد التسمية : سيدتى لولا إبقائى عليك أدام الله حياتك لوصف شطرا من غدرك ، وبسطت شطر غبنى[2] عليك ، وسلكت ظلامتى فيك ، إذ كنت الجانية على نفسك ونفسى ، والمظهرة لسوء العهد ، وقلة الوفاء والمؤثرة

---

(١) الوَحَل : الطين الرقيق ، ومشية مستوحل أى : مشية بحذر وتردد .

(٢) الغبن : الخديعة .

علينا غيرنا ، فخالفت هواى ، والله المستعان على ماكان من سوء اختيارك والسلام .

وأوقفتنى على ماحمله إليها من الهدايا والتحف العظيمة ، فإذا هو بمقدار ثلاثين ألف دينار ، ثم رأيتها بعد ذلك وقد تزوج بها ضمرة. فقال الرشيد : لولا أن ضمرة سبقنى إليها لكان لها معى شأن من الشئون ، انتهى.

[٧٤] **وحكى مسرور الخادم قال** : أرق الرشيد أرقا شديدا ليلة من الليالى ، فقال : يامسرور من على الباب من الشعراء ، فخرجت إلى الدهليز فوجدت : جميل بن معمر العذرى ، فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة ، فدخلت ودخل معى إلى أن صار بين يدى هارون الرشيد فسلم بسلام الخلافة ، فرد عليه وأمره بالجلوس ، فقال له الرشيد : ياجميل أعندك شيء من الأحاديث العجيبة ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين أيما أحب إليك ماعاينته ورأيته ، أو ماسمعته ووعيته ؟ فقال : بل حدثنى عما عاينته ورأيته .

فقال : نعم يأمير المؤمنين أقبل على بكلك واصغ إلى بأذنك ، قال : فقصد الرشيد إلى مخدة من الديباج الأحمر المزركش بالذهب محشوة بريش النعام ، فجعلها تحت فخذه ، ثم مكن منها مرفقيه، وقال : هلم بحديثك .

فقال : اعلم ياأمير المؤمنين أنى كنت مفتونا بفتاة محبا لها ، وكنت آلفها إذ هى سؤلى وبغيتى من الدنيا ، وأن أهلها رحلوا بها لقلة المرعى ، فأقمت مدة لم أرها ، ثم إن الشوق أقلقنى وحذبنى إليها ، فراودتنى نفسى

بالمسير إليها ؛ فلما كانت ذات ليلة من الليالى هزنى الوجد إليها فقمت وشددت رحلىّ على ناقتى ، واعتممت بعمتى ، ولبست أطمارى[1] ، وتقلدت بسيفى ، وتنكبت حجفتى[2] ، وركبت ناقتى ، وخرجت طالبا لها، وكنت أجد فى السير ؛ فسرت وكانت ليلة مظلمة مدلهمة[3] ، وأنا مع ذلك أكابد هبوط الأودية ، وصعود الجبال ، وأسمع زئير الآساد وعواء الذئاب ، وأصوات الوحوش من كل جانب ؛ وقد ذهل عقلى وطاش لبى ، ولسانى لايفتر عن ذكر الله تعالى .

فبينما أنا أسير كذلك ، إذ غلبنى النوم فأخذت بى الناقة على غير الطريق التى كنت فيها وزاد على النوم وإذ أنا بشىء لطمنى على رأسى ، فانتبهت فزعا مرعوبا ، وإذا بأشجار وأنهار وماء وأطيار على تلك الأغصان تترنم[4] بلغاتها وألحانها وأشجار تلك المروج[5] مشتبكة بعضها ببعض ، فنزلت عن ناقتى ، وأخذت زمامها بيدى ولم أزل أتلطف بها إلى أن خرجت بها من تلك الأشجار إلى أرض فلاة[6] ، وفأصلحت كورها[7] ، واستويت راكبا على ظهرها ، ولا أدرى إلى أين

---

(١) الأطمار : الثياب .

(٢) تنكبت حجفتى ، أى لبسها على منكبه ، والحجفة : الترس من الجلد بلا خشب .

(٣) مدلهمة : شديدة السواد .

(٤) تترنم : تطرب .

(٥) المُرُوج : الأرض الواسعة فيها نبت كثير .

(٦) الفلاة : الصحراء الواسعة .

(٧) الكور: رَحْل البعير .

أذهب ولا إلى ماتسوقنى الأقدار ، فمددت نظرى فى تلك البرية فلاحت لى نار فى صدرها ، فوكزت ناقتى وسرت طالبا إلى أن وصلت إلى تلك النار فقربت منها وتأملت وإذا بخباء مضروب ، ورمح مركوز ، وراية قائمة ، وخيل واقفة ، وإبل سائمة ، فقلت فى نفسى : يوشك أن يكون لهذا الخباء شان عظيم ؛ فإنى لاأرى فى هذه البرية سواه .

ثم تقدمت خلف الخباء وقلت : السلام عليكم ياأهل الخباء ورحمة الله وبركاته ، فخرج إلىَّ من الخباء غلام من أبناء تسعة عشر كأنه البدر إذا أشرق والشجاعة لائحة بين عينيه فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ياأخا العرب إنى أظنك ضالا عن الطريق . فقلت : الأمر كذلك ، أرشدنى يرحمك الله تعالى ، فقال : ياأخا العرب إن أرضنا هذه مسبعة ، وهذه الليلة مظلمة موحشة شديدة الظلمة والبرد ولا آمن عليك من الوحش أن يفترسك، فانزل عندى على الرحب والسعة ، فإذا كان الغد ارشدتك إلى الطريق ، قال : فنزلت عن ناقتى وعقلتها بفاضل زمامها ، ونزعت ماكان على من أطمار ، وجلست ساعة ، وإذا بالشاب قد عمد إلى شاه فذبحها وإلى نار فأضرمها وأججها ، ثم دخل الخباء وأخرج أبزاراً[1] ناعمة ، ولحما مطيبا ، وأقبل يقطع من اللحم ويشوى على النار ويطعمنى ويتنهد تارة ويبكى تارة أخرى ، ثم شهق شهقة عظيمة وبكى بكاء شديدا وأنشد يقول:

ولم يبق إلا نفس خافت ومقلة إنسانها باهت
لم يبق فى أعضائه مفصل إلا وفيه سقم ثابت

---

(١) أبزار : الثياب .

فدمعه جار وأحشاؤه توقد إلا أنه ساكت
تبكي له أعداؤه رحمة ياويح من يرثى له الشامت

قال جميل : فعند ذلك يا أمير المؤمنين علمت أن الغلام عاشق ولهان، ولا يعرف الهوى إلامن ذاق طعم الهوى ، فقلت فى نفسى : أنا فى منزل الرجل وأتهجم عليه فى السؤال فردعت نفسى : وأكلت من ذلك اللحم بحسب الكفاية ؛ فلما فرغت من الأكل قام الشاب ودخل الخباء ، وأخرج طستا نظيفا وإبريقا حسنا ومنديلا من الحرير أطرافه مزركشه بالذهب الأحمر وقمقما مملوء من الماورد الممسك ، قال: فتعجبت من ظرفه ورقه حاشيته ، وقلت فى نفسى : ماأغرب الظرف فى البادية ، ثم غسلنا أيدينا وتحدثنا ساعة، ثم إنه قام ودخل الخباء وقطع بينى وبينه بمقطع من الديباج الأحمر ، ثم خرج وقال : ادخل ياوجه العرب وخذ مضجعك ، فقد لحقك فى هذه الليلة تعب وفى سفرك هذا نصب مفرط .

قال جميل : فدخلت فإذا أنا بفراش من الديباج الأخضر ، فعند ذلك نزعت ما كان على من الثياب ونمت بليلة لم أنم عمرى مثلها ، فلم أزل كذلك وأنا متفكر فى أمر هذا الشاب إلى أن جن الليل ونامت العيون ، فلم أشعر إلا بحس خفى لم أسمع ألطف منه ولا أرق حاشية فرفعت سجاف المضرب ونظرت ، فإذا أنا بصبيه لم أر أحسن منها وجها وهى إلى جانبه وهما يبكيان ويتشاكيان ألم الهوى والصبابة والجوى وشدة اشتياقهما إلى التلاقى. فقلت : يالله العجب من هذا الشخص الثانى، وهذا بيت فرد فإنى لم أر فيه غير هذا الفتى وليس حوله أحد ، ثم قلت فى نفسى : لاشك أن هذه الجارية من بنات الجن تهوى هذا الغلام وقد تفرد بها فى هذا المكان

وتفردت به فحققتها ، فإذا هى إنسية عربية إذا رمقت[1] تخجل الشمس المضيئة ، وقد أضاء الخباء من نور وجهها ، فلما تحققت أنها محبوبته غلبتنى الغيرة على الحب ، فأرخيت الستر وغطيت وجهى ونمت. فلما أصبحت ، لبست ثيابى وتوضأت لصلاتى وصليت ماكان على من الفرض، ثم قلت له: ياأخا العرب هل لك أن ترشدنى إلى الطريق فقد تفضلت علىَّ فنظر إلىَّ وقال : على رسلك ياوحْدَ العرب ، الضيافة ثلاثة ، وما كنتُ بالذى يدْعك إلا لثلاثة أيام ، قال جميل : فأقمت عنده ثلاثة أيام.

فلما كان اليوم الرابع جلسنا للحديث فحادثته وسألته عن اسمه ونسبه، فقال: أما نسبى فأنا من بنى عذرة[2] ، وأنا فلان بن فلان ، وعمى فلان ، فإذا هو ابن عمى يا أمير المؤمنين ، وهو من أشرف بيت فى بنى عذرة ، قال: فقلت ياابن العم : ماحملك على ما أراه منك من الانفراد فى هذه البرية، وكيف تركت عبيدك وإماءك وانفردت بنفسك فى هذا المكان، فلما سمع يا أمير المؤمنين كلامى ، تغرغرت عيناه بالبكاء ، ثم قال : يا ابن العم إننى كنت محبا لابنة عمى مفتونا بها ، هائما بحبها ، مجنونا عليها، لاأطيق الفراق عنها ، فزاد عشقى لها فخطبتها من عمى فأبى أن يزوجنيها، وزوجها من رجل من بنى عذرة ، ودخل بها وأخذها إلى المحلة التى هو فيها من العام الأول ، فلما بعدت عنى ، وحجبت عن النظر إليها حملتنى لوعات الهوى ، وشدة الشوق والجوى على تركى أهلى

---

(١) رمقت : أدام النظر .

(٢) عُذْرة : قبيلة عربية من قضاعة إليها يُنسب الحب العذرى المشهور بشدة العشق والعفة.

ومفارقتى عشيرتى وخلانى ، وجميع أمتعتى وانفردت بهذا البيت فى هذه البرية ، وألفت وحدتى . فقلت : وأين أبياتهم ؟ قال: هم قريب فى ذروة هذا الجبل ، وفى كل ليلة ، عند نوم العيون وهدوٍ من الليل ، تنسل من الحى سراً ، بحيث لا يشعر بها أحد ، فأقضى منها بالحديث وطراً وتقضى هى كذلك ، وها أنا مقيم كذلك على هذا الحال أتسلى بها ساعة من الليل ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، أو يأتينى الأمر على رغم الحاسدين أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين .

قال جميل: فلما حدثنى الغلام ياأمير المؤمنين ، غمنى أمره ، وصرت من ذلك فى حيرة لما أصابنى عليه من الغيرة . فقلت له : يا ابن العم هل لك أن أدلك على حيلة أشير بها عليك ، وفيها إن شاء الله عين الصلاح وسبيل الرشد والنجاح، وبها يفرج الله عنك الذى تخشاه ، فقال لى : قل يا ابن العم ، فقلت له : إذا كان الليل وجاءت الجارية فاطرحها على ناقتى فإنها سريعه الرواح واركب أنت جوادك، وأنا أركب بعض هذه النوق وأسير بكم الليلة جميعها فما يصبح الصباح إلا وقد قطعت بكم برارى وقفارا ، وتكون قد بلغت مرادك وظفرت بمحبوبة قلبك وأرض الله واسعة فضاها، وأنا والله مساعدك ماحييت بروحى ومالى وسيفى . فلما سمع ذلك، قال : يا ابن العم حتى أشاورها فى ذلك فإنها عاقلة لبيبة بصيرة بالأمور .

قال جميل : فلما جن الليل وحان وقت مجيئها ، وهو منتظر الوقت المعلوم أبطأت عن عادتها ، فرأيت الفتى وقد خرج من باب الخباء وفتح فاه وجعل يتنسم هبوب الريح التى تهب من نحوها وأنشد يقول :

ريح الصبا تهدى إلى نسيم ... من بلدة فيها الحبيب مقيم
يا ريح فيك من الحبيب علاقة ... أفتعلمين متى يكون قدوم

ثم دخل الخباء وقعد ساعة زمانية وهو يبكى ، ثم قال لى : يا ابن العم إن لبنت عمى فى هذه الليلة نبأ وقد حدث لها حادث وعاقها عنى عائق، ثم قال لى : كن مكانك حتى آتيك بالخبر ، ثم أخذ سيفه وحجفته[1] ، ثم غاب عنى ساعة من الليل ثم أقبل وعلى يديه شىء يحمله، ثم صاح إلىّ فأسرعت إليه ، فقال : أتدرى يا ابن العم ما الخبر ؟ فقلت : لا والله ، فقال: فُجِعت فى ابنة عمى فى هذه الليلة ، لأنها كانت توجهت إلينا كعادتها ، إذ عرض لها فى طريقها أسد فافترسها ، ولم يبق منها إلا ماترى ، ثم إنه طرح ماكان على يده فإذا هو : مشاش[2] الجارية وما فضل من عظامها، ثم بكى بكاء شديدا ورمى الترس من يده وأخذ كساء على يده، ثم قال لى: لاتبرح إلى أن آتيك إن شاء الله تعالى ، ثم سار فغاب عنى ساعة، ثم عاد وبيده رأس الأسد فطرحه عن يده، ثم طلب ماء فآتيته به،فغسل فم الأسد،وجعل يقبله ويبكى ويئن وزاد حزنه عليها،وأنشد يقول:

ألا أيها الليث المغر بنفسه ... هلكت لقد هيجت لى بعدها شجنا
وصيرتنى فردا وقد كنت ألفها ... وصيرت بطن الأرض لى ولها وطنا
أقول لدهرٍ خاننى بفراقها ... وغار عليها أن أكون لها حزنا

ثم قال : يا ابن العم سألتك بالله ، وبحق القرابة ، والرحم التى بينى وبينك ألا حفظت وصيتى : إنك سترانى الساعة ميتا بين يديك ، فإذا كان

---

(١) الحجفة : الترس من الجلد بلا خشب ، وجمعها حجف .

(٢) المُشَاش : رؤوس العظام .

كذلك فغسلني وكفني أنا وهذا الفاضل من مشاش الحارية في هـذا الثوب وادفنا في قبر واحد واكتب على قبرنا هذه الأبيات ، وأنشد يقول :

كنا على ظهرها والعيش في رغد ... والشمل مجتمع والدار والوطن
ففرق الدهر والتصريف ألفتنا ... وصار يجمعنا في بطنها الكفن

قال : ثم بكى بكاء شديدا ، ثم دخل المضرب وغاب عني ساعة ، وخرج وجعل يتنهد ويصيح ثم شهق شهقة فارق الدنيا ، فلما رأيت ذلك منه عظم علي وكبر عندي حتى كدت ألحق به من شدة حزني عليه ، ثم تقدمت إليه وفعلت به ما أمرني : من الغسل وكفنتهما جميعا ، ودفنتهما في قبر واحد ، وأقمت على قبرهما ثلاثة أيام ، ثم ارتحلت ، وأقمت سنين أتردد إلى زيارتهما ، وهذا ما كان من حديثهما يا أمير المؤمنين . قال : فلما سمع الرشيد كلامه: استحسنه وخلع عليه وأجازه جائزة حسنة ، والله أعلم.

حكاية أجنبية

[٧٥] **قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي**[١]: بينما أنا ذات يوم في منزلي ، وكان زمن الشتاء وقد انتشرت السحب وتراكمت الأمطار بقطر

---

(١) إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي ، أبو محمد النديم : من أشهر ندماء الخلفاء، تفرد بصناعة الغناء ، فكان عالماً باللغة ، والموسيقى ، والتاريخ ، راويا للشعر حافظا للأخبار ، نادم الرشيد والمأمون ، والواثق . ولما مات نُعي إلى المتوكل ، فقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته ، ت[٢٣٥هـ- ٨٥٠م] .انظر : وفيات الأعيان (٦٥/١) الفهرست (١٤٠/١) .

كأفواه القرب وامتنع الغادى والمقبل من المسير فى الطرقات لما فيها من الأمطار والوحل ، وأنا ضيق الصدر ، إذلم يأتنى أحد من إخوانى ولم أقدر على المسير إليهم من شدة الوحل والطين ، فقلت لغلامى : أحضرلى ما أتشاغل به فأحضر لى طعاما وشرابا ، فتنغصت إذلم يكن معى من يؤانسنى ولم أزل أتطلع من الطاقات وأراقب الطرقات ، وأقبل الليل فتذكرت جارية لبعض أولاد المهدى كنت أهواها ، وكانت عارفة بالغناء وتحريك الملاهى، فقلت فى نفسى : لو كانت الليلة عندنا ، لتم سرورى وطالت ليلتى مما أنا فيه من الفكر والقلق، وإذا بداق يدق الباب وهر يقول : أيدخل محبوب على الباب واقف ؟

فقلت فى نفسى : لعل غرس التمنى أثمر ، فقمت إلى الباب ، فإذا بصاحبتى وعليها مرط[1] أخضر ، قد اتشحت به ، وعلى رأسها وقاية من الديباج تقيها من المطر، وقد غرقت فى الطين إلى ركبتها ، وابتل ما عليها من المزاريب وهى فى حال عجيب. فقلت لها : ياسيدتى ما الذى أتى بك فى مثل هذه الأوحال ؟ فقالت: قاصدك جاءنى ووصف كما عندك من الصبابة والشوق ، فلم يسعنى إلا الإجابة والإسراع نحوك . فعجبت من ذلك ، وكرهت أن أقول لها إنى لم أرسل إليك أحدا، فقلت : الحمدلله على جمع الشمل بعدما قاسيت من ألم الصبر ، ولو كنت أبطأت علىَّ ساعة: كنت أحق بالسعى إليك ، فإنى كثير الصبابة نحوك. ثم قلت لغلامى: هات الماء ، فأقبل بسخانة فيها ماء حار حتى أصلح لها حالها ، ثم أمرته أن يصب الماء على رجليها ، وتوليت غسلهما ثم دعوت ببدلة من

---

(١) مِرْط : كساء من صوف يؤتزر به .

أفخر الملبوس فألبستها إياها بعد أن نزعت ماكان عليها وجلسنا ، ثم استدعيت بالطعام فأبت ، فقلت : هل لك فى الشراب ؟ فقالت : نعم فتناولت أقداحا، ثم قالت : من يغنى لى ؟ فقلت لها : أنا ياسيدتى ، فقالت: لا أحب ، فقلت : بعض جوارى ، قالت : لا أريد ، فقلت : غنى لنفسك ، قالت : ولا أنا ، قلت : فمن يغنيك ؟ قالت : التمس من يغنى لى، فخرجت طاعة لها ، إلا أنى آيس من أن أجد أحدا فى مثل هذا الوقت، فلم أزل حتى بلغت الشارع ، فإذا أنا بأعمى يخبط بعصا ، وهو يقول : لاحزى الله من كنت عندهم خيرا ، إن غنيت لم يسمعوا وإن سكت استخفوا بى. فقلت : أمغن أنت ؟ قال : نعم ، قلت : فهل لك أن تتم ليلتك عندنا ، وتؤانسنا ؟ قال : إن شئت خذ بيدى ، فأخذت بيده وسرت إلى الدار ، وقلت لها : يا سيدتى أتيت بمغن أعمى نلتذ به ولايرانا، فقالت: علىّ به فأدخلته وعزمت عليه فى الطعام ، فأكل أكلا لطيفا، وغسل يده وقدمت إليه الشراب فشرب ثلاثة أقداح ثم قال لى : من تكون ؟ قلت: إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، قال : لقد كنت أسمع بك والآن فرحت بمنادمتك ، فقلت : ياسيدى فرحت بمن يسرك ، فقال : غن ياإسحاق فأخذت العود على سبيل المجون ، وقلت : السمع والطاعة ؛ فلما غنيت وانقضى الصوت ، قال : يا إسحاق قاربت أن تكون مغنيا ، فصغرت علىّ نفسى وألقيت العود من يدى ، فقال : ما عندك من يحسن الغناء ؟ قلت : عندى جارية قال : مرها فلتغن قلت : تغنى وأنت واثق بغنائها ، قال : نعم، فغنت ، قال : ما صنعت شيئاً فرمت العود من يدها مغضبة، وقالت : الذى عندنا جدنا به ، فإن كان عندك شيء فتصدق به ، فقال : علىّ بعود لم تمسه يد ، فأمرت الخادم فجاء بعود جديد فضرب فى طريقة لا أعرفها واندفع يغنى هذه الأبيات :

سرى يقطع الظلماء والليل عاكف حبيب بأوقات الزيارة عارف
وما راعنا إلا السلام وقولها أيدخل محبوب على الباب واقف

قال : فنظرت إليَّ الجارية شزرا ، وقالت : سِرٌّ بيني وبينك ماوسعه صدرك ساعة وأودعته لهذا الرجل ، فحلفت لها ثم اعتذرت إليها وأخذت أقبل يديها، وأدغدغ ثدييها ، وأعض خديها ، حتى ضحكت ثم التفت إلى الأعمى وقلت : غن ياسيدى فأخذ العود وغنى هذه الأبيات :

ألا ربما زرت الملاح وربما لمست بكفى البنان المخضبا
ودغدغت رمان الصدور ولم أزل أعضعض تفاح الخدود المكتبا

فقلت لها : ياسيدتى فمن أعلمه بما نحن فيه ؟ قالت : صدقت ثم تحنبناه، فقال: إنى لحاقن[1]. فقلت : يا غلام خذ الشمعة وامض بين يديه، فخرج وأبطأ فخرجنا فى طلبه ، فلم نجده ، وإذا الأبواب مغلقة والمفاتيح فى الخزانة ، فلا ندرى أفى السماء صعد أم فى الأرض هبط ، ثم علمت أنه إبليس وأنه قاد لى ثم انصرف، فتذكرت قول أبى نواس حيث قال :

عجبت من إبليس فى كبره وخبث ما أضمر فى نيته
تاه على آدم فى سجدة وصار قوادا لذريته

[٧٦] ونظير ذلك مما يستظرف لأبى نواس، ماحكى عنه أنه قال : ضجرت من ملازمة أمير المؤمنين هارون الرشيد ، حتى أنى لم أجد فراغا إلى نفسى ، فتوجه أمير المؤمنين إلى الصرح ليبيت فيه ثم يعود ، فوجدت لروحى فرصة ، فدخلت دارى وأغلقت بابى وأحضرت شرابا وطلبت

---

(١) حَاقِن : من حقن بوله واشتد عليه .

نفسى الخلوة ، فعند المساء وإذا بالباب يطرق، فخرجت وإذا أنا بظبى من أولاد الأتراك[1] ، ما رأت عينى أحسن منه منظرا فسلم على، وقال لىّ : أتقبل ضيفا ؟ قلت : ياسيدى ومن لى بذلك ، فدخل بيتى فحار عقلى عند دخوله ، ثم أخرج من تحت ثيابه سلاحية شراب ونقلا[2] وشيئاً من الدجاج، ثم شرب وغنى شيئاً لم أسمعه من غيره ، وقضيت مرادى منه مرارا، إلى أن مضى وقت من الليل ، وقد هام عقلى من الشراب ومن حسنه ومن تسيلم نفسه إلىّ بغير تقديم عوض .

ثم قال : ياسيدى أريد الانصراف ، فقلت له : ياسيدى متى خرجت أنت ، خرجت روحى من جسدى ، وكل شىء أملكه بين يديك ، وأنا أصير عبدك بعد هذا اليوم ، ولا أفارقك ، قال : أصحيح ماتقول ؟ قلت : نعم ، قال : أنا محتاج إلى مالك ، وإن كنت صادقا فيما ادعيت من محبتك لى ، قم واحلق لحيتك وشاربك واقعد مثلى أمرد ، قال فحكم علىّ السكر والعشق ، فما قدرت أن أخالفه فأجبته إلى ذلك على أنه يبيت عندى ، فعمد إلى موسى وبل لحيتى وفى الحال أنزلها وبقيت مثله أمرد ؛ ثم صار يضحك علىّ ، وقال : يا أبا نواس كيف الشعر الذى ذكرت فيه آدم وإبليس فأنشدته قائلا :

عجبت من إبليس فى كبره ... وخبث ما أضمر فى نيته
تاه على آدم فى سجدة ... وصار قوادا لذريته

---

(١) ظبى من أولاد الأتراك : يقصد به غلام جميل الصورة .

(٢) النقل : هو ما يؤكل على الشراب كالفستق والتفاح .

ثم ضحك ضحكا عاليا وصك على ساحل قفاى صكا مزعجا فاغتظت منه ؛ ثم قلت له : ويلك أتفعل بى هكذا ، ثم أردت التطلع إليه فما وجدت أحدا يجيبنى، فقلت : إنه الملعون إبليس ، انتهى.

[٧٧] وقال بعضهم :

قد جاءنى ليلا أبو مرة ... إبليس يدعونى بلا ترحمان
وقال لى هل لك فى أمرد ... يهز من أعطافه غصن بان
قلت نعم قال وفى خمرة ... حبابها يحكى عقود الجمان
قلت نعم قال فنم آمنا ... أنت رئيس الفسق هذا الزمان

[٧٨] وقال أبو نواس :

وليلة طال سهادى بها ... فزارنى إبليس عند الرقاد
وقال لى هل لك فى قحبة ... لبيبة تطرد عنك الرقاد[١]
قلت نعم قال وفى قهوة ... عتقها العاصر من عهد عاد
قلت نعم قال وفى مطرب ... إذا شدا يطرب منه الجماد
قلت نعم قال وفى شادن ... قد كحلت أجفانه بالسواد
قلت نعم قال وفى طفلة ... فى وجنتيها للمحب انقياد
قلت نعم قال فنم آمنا ... ياكعبة الفسق وركن الفساد

[٧٩] وقال زين الدين عمر بن الوردى[٢] معارضا لذلك :

---

(١) قَحْبة : المرأة البغى .

(٢) زين الدين عمر بن الوردى : مؤرخ ، وشاعر .ولى قضاء منبج بالشام .له "نصيحة الإخوان "المعروفة بـ "لامية ابن الوردى" .ت[٧٤٨هـ-١٣٤٨م] .

نمـــت وإبليـــس أتـــى بحيلـــه منتدبـــه
فقـــال مـــا قولـــك فـــى حشيشـــة منتخبـــه
فقلـــت لا قـــال ولا خمـــرة كـــرم مذهبـــه
فقلـــت لا قـــال ولا مليحـــة مطيبـــه
فقلـــت لا قـــال ولا أغيـــد بـــالبدر اشـــتبه[1]
فقلـــت لا قـــال ولا آلـــة لهـــو مطربـــه
فقلـــت لا قـــال فنم مـــا أنـــت إلا حطبـــه

[٨٠] و[قيل] : حضر أبو نواس عند الرشيد ليلة أنس ، وكان أبو طوق حاضرا ، وكان أبو نواس مشغوفا بحسنه وجماله ، فلما انقضى المجلس : أخذ كل واحد مضجعا للنوم ، فخاف الخليفة من أبى نواس على أبى طوق، فقال الخليفة لأبى طوق : نم أنت على السرير ، وقال لأبى نواس : أنام أنا وأنت أسفل السرير ، فقال : سمعاً وطاعة وهو بذلك غير راض فى نفسه ؛ وتغافل الخليفة عن أبى نواس ، وأظهر النوم، ثم انتبه فوجد أبا نواس فوق السرير بجنب أبى طوق يضمه ويعانقه ، فقال : ما هذا يا أبا نواس ؟ فقال :

هزنى الشوق من أجل أبى طوق فتدحرجت من أسفل إلى فوق

فقال له : قاتلك الله ، انتهى من حلبة الكميت .

---

(١) أغيد : الغلام يتمايل فى مشيته .

[٨١] ومن غريب ما يحكى ماحكاه القاضى أبو الحسن التنوخى[1] فى كتاب الفرج بعد الشدة : أن منارة وكان صاحب شرطة الرشيد ، قال: رفع إلى هارون الرشيد أن رجلا بدمشق من بقايا بنى أمية ، عظيم المال ، كثير الجاه ، مطاع فى البلد له ، جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ، ويغزون الروم ، وأنه سمح جواد ، كثير البذل والضيافة ، وأنه لا يؤمن منه . فعظم ذلك على الرشيد . قال منارة: وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة فى بعض حجه فى سنة ست وثمانين ومائة ، وقد عاد من الموسم وقد بايع للأمين والمأمون والمعتصم ، أولاده؛ فدعانى وهو خال وقال : إنى دعوتك لأمر يهمنى وقد منعنى النوم فانظر كيف يكون : ثم قص علىَّ خبر الأموى وقال اخرج الساعة فقد أعددت لك الخيول، وأزحت علتك فى الزاد والنفقة والآله ، ونضم إليك مائة ، واسلك البرية ، وهذا كتابى إلى نائب دمشق ، وهذه قيود فابدأ بالرحل فإن سمع وأطاع فقيده وجئنى به، وإن عصى فتوكل عليه أنت ومن معك لئلا يهرب، وأنفذ الكتاب إلى أمير دمشق ليكون مساعدا لك ، واقبضا عليه وجئنى به ، وأجلت لذهابك ستا ولإيابك ستا، ويوما لمقامك ، وهذا محمل تجعله فى شقة منه إذا قيدته ، وتقعد أنت فى الشقة الأخرى ، ولاتكل حفظه إلى غيرك حتى تأتينى به فى الثالث عشر يوما من خروجك؛ فإذا دخلت داره ، فتفقدها وجميع مافيها من أهله وولده وحاشيته وغلمانه، وقدر نعمته ، والحال والمحل ، واحفظ مايقوله الرجل حرفا بحرف من

---

(١) أبو الحسن التنوخى : القاضى ، الأديب ، الشاعر .تعلم على الصولى ، وأبى الفرج الأصبهانى .تولى القضاء فى بغداد وتوفى بها ت[٣٨٤هـ-٩٩٤] .

ألفاظه منذ يقع طرفك عليه حتى تأتينى به ، وإياك أن يشكل عليك شىء من أمره ، انطلقْ .

قال منارة : فودعته وانطلقت وخرجت فركبت الإبل وسرت أطوى المنازل، أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين ، والبول وتنفيس الناس قليلا إلى أن وصلت إلى دمشق فى أول الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة ، فكرهت طروقها ليلا ، فبت بظاهر البلد إلى أن فتح بابها من غد . فدخلت حتى أتيت باب الرحل وعليه صف عظيم وحاشية كثيرة فلم أستاذن ودخلت بغير إذن ؛ فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معى عنى، فقال : هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم قال فلما صرت فى صحن الدار نزلت ودخلت مجلسا رأيت فيه قوما جلوسا ، فظننت أن الرجل فيهم فقاموا ورحبوا بى فقلت : أفيكم فلان ؟ قالوا : نحن أولاده ، وهو فى الحمام ، فقلت : استعجلوه فمضى بعضهم يستعجله ، وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها ماجت بأهلها موجا كبيرا ، فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال مكثه واستربت منه ، واشتد قلقى وخوفى من أن يتوارى إلى أن رأيت شخصا بزى الحمام يمشى فى صحن الدار ، وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان، وهم أولاده وغلمانه ، فقلت : إنه الرجل فجاء وجلس وسلم على سلاما خفيفا وسألنى عن أمير المؤمنين واستقامة حضرته ، فأخبرته بما وجب وماقضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة ، فقال : تقدم يامنارة وكل معنا فقلت مالى إلى ذلك من سبيل، فلم يعاودنى فأكل هو ومن معه ثم غسل يديه ودعا بالطعام ، فجاءوا إليه بمائدة حسنة لم أر مثلها إلا للخليفة ، فقال : يامنارة ساعدنا

على الأكل ، لايزيد على أن يدعونى باسمى كما يدعونى الخليفة ، فامتنعت عليه فما عاودنى ، فأكل هو ومن معه وكانوا تسعة من أولاده . فتأملت أكله فى نفسه فوجدته يأكل أكل الملوك ووجدت ذلك الاضطراب الذى كان فى داره قد سكن ، ووجدتهم لايرفعون شيئاًمن بين يديه قد وضع على المائدة إلاتهيأ غيره حالا أعظم وأحسن منه ، وقد كان غلمانه أخذوا لما نزلت إلى الدار مالى وغلمانى وعدلوا بهم إلى دار أخرى ، فما أطاقوا ممانعتهم وبقيت وحدى وليس بين يدى إلا خمس أو ست غلمان وقوف على رأسى ، فقلت فى نفسى: هذا جبار عنيد ، فإن امتنع من الشخوص ، لم أطق إشخاصه بنفسى ولابمن معى ولا أحفظ إلا أن يلحقنى أمير البلد وجزعت جزعا شديدا ، ورابنى منه استخفافه وتهاونه بأمرى ، يدعونى باسمى ولا يفكر فى امتناعى من الأكل ، ولايسأل عما جئت ، ويأكل مطمئنا ، وأنا مفكر فى ذلك .

فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا بالبخور فتبخر ، وقام إلى الصلاة وصلى الظهر ، وأكثر من الدعاء والابتهال، ورأيت صلاته حسنة فلما انتقل من المحراب أقبل على ، وقال : ما أقدمك يامنارة ؟ فأخرجت كتاب أمير المؤمنين ، ودفعته إليه ففضه وقرأه ، فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته، فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أن يوقع بى ، فلما تكاملوا ، ابتدأ فحلف أيمانا غليظة فيها : الطلاق ، والعتاق ، والحج ، والصدقة، والوقف ، أن لايجتمع اثنان فى موضع واحد ، وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم ولايظهروا إلى أن يكشف لهم أمرا يعتمدون عليه ، وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين بالمصير إليه ، ولست أقيم بعد نظرى فيه ساعة

واحدة، فاستوصوا بمن ورائى من الحريم ، خيرا ومالى حاجة أن يصحبنى أحد منكم هات قيودك يامنارة فدعوت بها وكانت فى سفط[1] ومدَّ يده فقيدته وأمرت غلمانى بحمله ، حتى صار فى المحمل وركبت فى الشق الآخر ، وسرت من وقتى ولم ألاق أمير البلد ولا غيره .

وسرت بالرجل وليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق ، فابتدأ يحدثنى بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن فى الغوطة ، فقال لى : أترى هذا ؟ قلت : نعم قال : إنه لى وقال : إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت ، ثم انتهى إلى آخر ، فقال : مثل ذلك ، ثم انتهى إلى مزارع حسان، وقرى ، فقال : مثل هذا لى ، فاشتد غيظى منه، وقلت : ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك ، وأخرجك فريدا مقيدا مغلولا ، ماتدرى إلى ما يصير إليه أمرك، ولاكيف يكون ، وأنت فارغ القلب من هذا ، حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد أن حثتك وأنت لا تفكر فيما جئت به ، وأنت ساكن القلب قليل التفكر ، لقد كنت عندى شيخا فاضلا .

فقال لى مجيبا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أخطأت فراستى فيك، لقد ظننت أنك رجل كامل العقل ، وأنك ما أحللت من الخلفاء هذا المحل إلالما عرفوك به ، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام والله المستعان ، أما قولك فى أميرالمؤمنين ، وإزعاجه وإخراجه إياى إلى بابه على صورتى هذه ، فإنى على ثقة من الله عز وجل الذى بيده ناصية أمير المؤمنين

---

(١) السفط : وعاء كالقفة أو الحوالق .

ولايملك أمير المؤمنين لنفسه نفعا ولا ضرا إلا باذن الله عز وجل ، ولا ذنب لى عند أمير المؤمنين أخافه ، وبعد فإذا عرف أمير المؤمنين أمرى وعرف سلامتى وصلاح نيتى سرحنى مكرما ، فإن الحسدة والأعداء رمونى عنده بما ليس فى وتقوّلوا علىَّ الأقاويل ولم يستحل دمى ويخرج من إيذائى وإزعاجى ويردنى مكرما ويقيمنى ببلاده معظما مبجلا وإن كان قد سبق فى علم الله عز وجل أنه يبدو لى منه سوء ، وقد اقترب أجلى وكان سفك دمى على يده ، فلو اجتهدت الملائكة والأنبياء وأهل الأرض والسماء على صرف ذلك عنى ما استطاعوا، فلم أتعجل الفكرة فيما فرغ الله منه ، وإنى أحسن الظن بالله الذى خلق ورزق وأمات ، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة ، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا ، فإذن قد عرفت مبلغ فهمك، فإنى لا أكلمك بكلمة واحدة ، حتى يفرق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى ثم أعرض عنى فما سمعت منه لفظة غير : القرآن والتسبيح ، أو طلب ماء ، أو حاجة ، حتى شارفنا الكوفة فى اليوم الثالث عشر بعد الظهر، والنحب[1] قد استقبلتنى قبل ستة فراسخ من الكوفة يتجسسون خبرى ، فحين رأونى رجعوا عنى متقدمين بالخبر إلى أمير المؤمنين ، فانتهيت إلى الباب فى آخر النهار ، فحططت رحلى على الرشيد ، وقبلت الأرض بين يديه . ووقفت . فقال : هات ماعندك يامنارة وإياك أن تغفل عن لفظة واحدة، فسقت الحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور وماحدثتنى به نفسى من امتناعه ، والغضب يظهر فى وجه أمير المؤمنين

---

(١) النحب : الشجر ، وكنى بها عن الجواسيس لأنهم يختبئون ورائها .

ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأموى من الصلاة والتفاته إلى وسؤاله عن سبب قدومى ودفعى الكتاب إليه ، ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وأصحابه وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد وصرفه إياهم ومد رحليه فقيدته ، فما زال وجه الرشيد يسفر ؛ فلما انتهيت إلى ما خاطبنى به عند توبيخى له لما ركبنا فى المحمل ، فقال : صدق و الله ما هذا إلا رجل محسود على النعمة ، مكذوب عليه ، ولعمرى لقد أزعجناه ، وآذيناه، ورعنا أهله فبادر بنزع قيوده وأثنى به .

قال : فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد ، فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يحول فى وجه الرشيد ، فدنا الأموى وسلم بالخلافة ووقف فرد عليه الرشيد ردا جميلا وأمره بالجلوس ، فجلس وأقبل عليه الرشيد فسأله عن حاله ، ثم قال له : بلغنا عنك فضل هيئة وأموراً حببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك فاذكر حاجتك ، فأجاب الأموى : جوابا جميلا وشكر ودعا ، ثم قال : ليس لى عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة ، فقال: مقضية ، فما هى ؟ قال : يا أمير المؤمنين تردنى إلى بلدى وأهلى وولدى ، قال : نفعل ذلك ولكن سل ما تحتاج إليه من مصالح جاهك ومعاشك ، فإن مثلك لا يخرج إلا ويحتاج إلى شىء من هذا ، فقال : يا أمير المؤمنين عمالك منصفون وقد استغنيت بعدلهم عن مسألتى ، فأمورى مستقيمة ، وكذلك أهل بلدى بالعدل الشامل فى ظل أمير المؤمنين ، فقال الرشيد : انصرف محفوظا إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك ، فودعه الأموى ، فلما ولى خارجا ، قال الرشيد : يامنارة احمله من وقتك وسر به راجعا كما سيرته ، حتى إذا وصلت إلى مجلسه

الذى أخذته منه فودعه وانصرف. قال منارة : فمازلت معه حتى انتهى إلى محله ، ففرح به أهله وأعطانى عطاء جزيلا وانصرفت ، والله أعلم وهذه الحكاية على سبيل الاختصار[1] .

[٨٢] وحكى : أن الخليفة هارون الرشيد قلق فى بعض الليإلى قلقا شديدا، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكى ، وقال له : ياوزيرى إن صدرى ضيق ، ومرادى الليلة التفرج فى شوارع بغداد ، وننظر فى مصالح العباد بشرط أن لا يعرفنا أحد من الناس ، ونتزيا بزى التجار الأكياس ، فقال له الوزير : السمع والطاعة فقاموا فى الوقت والساعة ، وقلعوا ما عليهم من ثياب الملك والافتخار ولبسوا ثياب التجار؛ الخليفة والوزير جعفر ومسرور السياف الأكبر ، وتمشوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى الدجله فرأوا بالأمر المقدر شيخا قاعدا فى شختور[2] ، فتقدموا إليه وسلموا عليه ، وقالوا: يا شيخ نشتهى من فضلك وإحسانك أن تفرجنا الليلة فى مركبك وخذ هذين الدينارين أجرتك انتفع بهما ، فقال لهم الشيخ : ومن يقدر علي الفرجة والخليفة هارون الرشيد ينزل كل ليلة فى حراقة[3] صغيرة إلى الدجلة ومعه منادي يناى معاشر الناس كافة : جيد وردئ ، شيخ وصبى ، خاص وعام وغلام ، كل من نزل فى مركب بالليل و شق الدجلة ضربت عنقه ، أو يشنق على صارى مركبه ، وكأنكم الساعة بالحراقة وهى مقبلة ، فقال له الخليفة هارون الرشيد وجعفر البرمكى: ياشيخ خذ هذين الدينارين

---

(١) انظر : الفرج بعد الشدة (٢/٦٣) .

(٢) الشَّخْتور :سفينة صغيرة .

(٣) الحَرَّاقة : من السفن الحربية ، وجمعها حرَّاقات .

وادخل بنا قبواً من هذه الأقبية إلى أن تروح الحراقة ، فقال لهم الشيخ : هاتوا الذهب واللّه المستعان فأخذ الذهب وعوم بهم قليلا ، وإذا بالحراقة قد أقبلت من كبد الدحلة ، وفيها الشموع والمشاعل ، فقال لهم الشيخ : أما قلت لكم ياستار لا تكشف الأستار ، فقال الخليفة هارون الرشيد والوزير جعفر البرمكى: ادخل بنا يا شيخ فى قبو من الأقبية حتى تمضى هذه الحراقة ، فدخل إلى قبو ووضع عليهم ، مئزرا أسود وصاروا يتفرجون من تحت المئزر وإذا بالحراقة قد أقبلت ، والشمع يوقد فيها وإذا فى مقدم الحراقة مشاعلى بيده مشعل من الذهب الأحمر ، يوقد فيه بالعود القاقلى[1] وعلى المشاعلى قباء أطلس أحمر بطراز مزركش أصفر ، وعلى رأسه شاش موصلى ، وعلى كتفيه مخلاة من الحرير الأخضر ملآنة من العود القاقلى وهو يوقد به عوض الحطب ، ومشاعلى آخر فى مؤخر الحراقة مثله ، ومائتا مملوك واقفون ميمنة وميسرة ، وكرسى منصوب من الذهب الأحمر ، وعليه شاب حسن جالس كالقمر ، وعليه خلعة سوداء بطرازين من الذهب الأصفر ، وبين يديه إنسان كأنه الوزير جعفر ، وعلى رأسه خادم واقف كأنه مسرور بسيف مشهور ، وعشرون نديما ، فقال الخليفة : ياجعفر قال : لبيك ياأمير المؤمنين قال : لعل أن يكون هذا أحد أولادى إما المأمون ، أو محمد الأمين ، فلما وصلت الحراقة إليهم ، وإذا بالمشاعلى ينادى : معاشر الناس كافة الخاص والعام ، والجيد والردىء ، والعبد والغلام ، جهاوات وغير جهاوات قد رسم خليفتنا هذا : إن كل من تفرج فى الدحلة ، أوفتح طاقته ، حل ماله وضربت رقبته، ومن لايصدق يجرب

---

(١) العود القاقُلى : نبات هندى له رائحة عطرية .

قال : فتأمل الخليفة هارون الرشيد فى الشاب ، وهو جالس على كرسى من الذهب ، قد كمل بالحسن والجمال والبهاء والكمال ، قد زان المنصب ، فلما تأمله هارون الرشيد ، التفت إلى الوزير ، وقال : ياوزير ، قال له : لبيك يا أمير المؤمنين، قال : والله ما أبقى شيئاً من شكل الخلافة، وهذا الذى بين يديه كأنه أنت ياجعفر لا محالة والخادم الذى على رأسه كأنه مسرور هذا ، وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائى، وقد حار عقلى فى هذا الأمر ، فقال له الوزير : وأنا والله يا أمير المؤمنين كذلك ، ثم تقدمت الحراقة إلى أن غابت عن العين ، فعند ذلك خرج الشيخ بالشختور الذى فيه الجماعة من تحت القبوة[1]، وقال : الحمد لله على السلامة الذى لم يصادفنا ، فقال له الخليفة : ياشيخ وهذا الخليفة ينزل كل ليلة فى الدجلة ؟ قال : نعم ياسيدى، له على هذه الحالة سنة كاملة ، فقال له الخليفة : ياشيخ نشتهى من فضلك وإحسانك أن تقف لنا ليلة غد فى هذا المكان ، ونحن نعطيك خمسة دنانير ، فإنا قوم غرباء ، وقصدنا التنزة ، ونحن نازلون فى الفندق[2]، فقال الشيخ : السمع والطاعة .

ثم إن الخليفة وجعفراً و مسرورا توجهوا من عند الشيخ المراكبى إلى القصر ، وقلعوا ما عليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك والافتخار ، وجلس كل واحد فى مرتبته ، ودخلت الأمراء والحجاب والنواب وانعقد المجلس بالناس ، ولما انقضى النهار وتفرقت الأجناد؛ قال الخليفة هارون الرشيد لوزيره : ياجعفر انهض بنا للفرجة على الخليفة الثانى ، فضحك

---

(١) القبو : البناء على هيئة القبة .

(٢) الفندق : المكان المعد لنزول المسافرين .

جعفر ومسرور ولبسوا لبس التجار وخرجوا منشرحى الصدور ، وكان خروجهم من باب السر ؛ فلما وصلوا إلى الدحلة وجدوا الشيخ صاحب الشحتور لهم فى الانتظار ، فنزلوا عنده فى المركب ، فلما استقروا مع الشيخ المراكبى ، وإذا بالخليفة الثانى فى الحراقة وقد أقبلت عليهم فتأملوها وإذا فيها مائتا مملوك غير المماليك الأول ، والمشاعلية تنادى على عادتهم.

فقال الخليفة : ياوزير هذا شىء لو سمعت به ماصدقت ، ولكن رأيت هذا عيانا ، ثم إن الخليفة قال لصاحب الشحتور : ياشيخ هذه عشرة دنانير فسر بنا فى مساواتهم ، فإنهم فى النور ونحن فى الظلام ننظرهم ونتفرج عليهم وهم لا ينظروننا، فأخذ الشيخ العشر دنانير وأطلق الشحتور فى مساواتهم وصار فى ظلام الحراقة ولم يزالوا سائرين فى أثرهم إلى آخر البساتين ، وإذا بزربية[1] بطول الحراقة التصقت عليها، وإذا بغلامين واقفين ومعهما بغله مسرجة ملجمة ، فطلع الخليفة الثانى وركب البغلة وسار بين الندماء وزعقت المشاعلية والحاويشية ، واشتالت الغاشية . وطلع هارون الرشيد وجعفر ومسرور إلى البر وشقوا بين المماليك وسارو اقدامهم فلاحت من المشاعلية التفاتة فرأو الثلاثة أنفار لبسهم لبس التجار وهم غرباء ، فانكروهم وغمزوا عليهم فمسكوهم وأحضروهم بين يدى الخليفة الثانى ، فلما نظرهم قال : كيف وصلتم إلى هذا المكان وما الذى جاء بكم فى مثل هذا الوقت ؟ قالوا : يامولانا اليوم كان قدومنا ونحن قوم

---

(١) زَرْبِيَّة : مابسط واتكىء عليه .

غرباء تجار وخرجنا نتمشى الليلة وإذا بكم قد أقبلتم ، وجاءوا هؤلاء وقبضواعلينا وأوقفونا بين أيديكم ، وهذا خبرنا ، فقال لهم الخليفة الثانى : طيبوا قلوبكم فلا بأس لأنكم قوم غرباء ولوكنتم من بغداد لضربت أعناقكم للمخالفة، ثم التفت إلى وزيره وقال : خذ هؤلاء صحبتك ليكونوا ضيوفنا الليلة ، فقال: سمعا وطاعة .

ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى قصر عظيم الشأن محكم البنيان ماحواه سلطان قصر قام من التراب وتعلق بأكناف السحاب ، بابه من خشب الساج[1] مرصع بالذهب الوهاج ، يدخل منه إلى إيوان بفسقية وشاذروان وحصر عبدانية ، ومخدات إسكندرانية ، وستر مسبول ، وفرش تذهل العقول وعلى عتبة الباب مكتوب هذان البيتان :

قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جمالها الأيام
فيه العجائب والغرائب نوعت فتحيرت فى نعتها الأقلام

قال : فدخل الخليفة الثانى إلى القصر والجماعة فى خدمته إلى أن جلس على كرسى من الذهب مرصع بالدر والجواهر ، وعلى الكرسى بشخانة من الحرير الأخضر لا يرى مثلها إلا عند كسرى وقيصر مزركشة بالذهب الأحمر معلقة فى بكرة من الصندل رباطاتها من الحرير الأصفر ، هذا وقد جلس الندماء فى مراتبهم وصاحب سيف النقمة واقف بين يديه

---

(١) خشب السّاج : من شجر مهده أندونيسيا ، وهو جميل المنظر وأحد أجواد الأخشاب الصلبة المعروفة .

فمدوا السماط[1] وأكلوا ورفعوا الخوان[2]، ولأيديهم غسلوا ، وأحضرت آلة المدام ووضعت الطاسات والأوانى وصفت الأباريق والكاسات والقنانى، ودار الدور إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد فامتنع من الشراب ، فقال الخليفة الثانى : لجعفر مابال صاحبك لايشرب ، فقال : يامولاى له مدة ماشرب فقال الشاب : عندى مشروب غير هذا يصلح لصاحبك ، على بشراب التفاح ففى الحال أحضر فقدم بين يدى هارون الرشيد ، وقال : كلما وصل إليك الدور فاشرب من هذا ، ولازالوا يشربون فى انشراح وتعاطى أقداح إلى أن تمكن الشراب من رؤسهم واستولى على عقولهم ونفوسهم .

فقال الرشيد لوزيره : والله ياوزير ماعندنا آنية مثل هذه الآنية فياليت شعرى من يكون هذا الشاب ! فبينما هما يتحدثان بلطافة إذ لاحت من الشاب إلتفاتة فوجد الوزير يسارالخليفة ، فقال : المسارة عربدة ، فقال الوزير : ما نم عربدة إلا أن رفيقى هذا يقول : سافرت غالب البلاد ونادمت الملوك وعاشرت الأحناد فما رأيت أحسن من هذا النظام ولامثل آنية هذا المدام إلا أن أهل بغداد يقولون : الشراب بلا سماع من جملة المجون .

فلما سمع الخليفة الثانى تبسم وانشرح وكان بيده قضيب ، فضرب به على مدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيا من العاج

---

(١) السماط : مايبسط ليوضع على الخوان .

(٢) الخوان : مايوضع عليه الطعام .

مُصفحا بالذهب الوهاج ، وخلفه جارية قد كملت بالحسن والجمال والبهاء والكمال فنصب الخادم الكرسى وجلست عليه الجارية وهى كالشمس الضاحية ، وبيدها عود من صنعة الهنود ، وشدته وحنت إليه بعد أن ضربت أربعة وعشرين طريقة عليه فأذهلت العقول وعادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول :

لسان الهوى من مقلتى لك ناطق ... يخبر عنى أننى لك عاشق
ولى شاهد من طرف قلبى معذب ... وقلبى جريح من فراقك خافق
وكم أكتم الحب الذى قد أذابنى ... وقلبى قريح والدموع سوابق
وماكنت أدرى قبل حبك ما الهوى ... ولكن قضا الرحمن فى الخلق سابق

قال : فلما سمع الخليفة الثانى هذا الشعر من الجارية ، صرخ صرخة عظيمة وشق البدلة التى كانت عليه إلى الذيل ، فأسبلت البشخانة ، وأتى ببدلة غيرها أحسن منها فلبسها وجلس على عادته ؛ فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم حامل كرسيا من ذهب وخلفه جارية أحسن من الأولى ، وجلست على الكرسى، وبيدها عود يكمد الحسود ، وأنشدت تقول :

كيف اصطبارى ونار العشق فى كبدى ... والدمع من مقلتى طوفانه مدد
والله ماطاب لى عيش أسر به ... وكيف يفرح قلب حشوه كمد

قال : فصرخ الشاب صرخة عظيمة ، وشق ما عليه إلى الذيل وأسبلت عليه البشخانة على العادة وأتى ببدلة غيرها أحسن منها ، فلبسها واستوى جالسا ، ودار المدام ، وانبسط الكلام ، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة ، ففتح الباب ، وخرج منه خادم على العادة ،

ومعه كرسى وخلفه جارية ، فجلست على الكرسى ومعها عود يذهل الأسود ، فغنت ، وأنشدت تقول :

أقصروا هجركم وقلوا جفاكم	ففؤادى وحقكم ماسلاكم
وارحموا مدنفا كئيباً حزينا	ذا غرام متيما فى هواكم
قد براه السقام من عظم وجد	يتمنى من الإله رضاكم
يا بدور محلكم فى فؤادى	كيف أختار فى الأنام سواكم

قال : فصرخ الشاب ، وشق ماعليه من الثياب ، فأرخو عليه البشخانة، وأتوا ببدلة غيرها ، وعاد إلى حالته مع ندمائه ، ودارت الأقداح وطاب الانشراح ؛ فلما وصل القداح إليه ضرب القضيب على المدورة ، ففتح باب وخرج منه خادم حامل كرسيا ، وخلفه جارية فجلست على الكرسى وأخذت العود وغنت تقول :

ترى ينصرم حال التهاجر والقلى	ويرجع ما قد انقضى لى أولا
أيام كنا والديار تلمنا	فى طيب عيش والحواسد غفلا
غدر الزمان بنا وفرق شملنا	من بعد هاتيك المنازل والحلا
أتروم منى يا عذولى سلوة	وأرى بقلبى مايطيع العذلا[1]
فدع الملام وخلنى بصبابتى	القلب من أنس المحبة ماخلا
ياسادة نقضوا العهود وبدلوا	لاتحسبوا قلبى لبعد كموسلا

قال : فلما فرغت الجارية صرخ الشاب صرخة عظيمة وشق ما عليه من الثياب ووقع إلى الأرض مغشيا عليه ، وسقط منه القوى والحيل ،

---

(١) أتروم : أتريد .

فأرادوا أن يرخوا عليه البشخانة على العادة فتعوقت حبالها بالإرادة ، فلاحت من هارون الرشيد التفاتة فنظر على أجناب الشاب أثر مقارع ، فقال الرشيد : بعد النظر والتأكيد لجعفر إنه شاب مليح إلا إنه لص قبيح ، وماعند أحد منه خبر هل رأيت ما على جنبيه من الأثر . وقد أسبلت البشخانة عليه على العادة، وأتى ببدلة غيرها ، فلبسها وقد أفاق من غشيته فاستوى جالسا على العادة مع الندماء فحانت منه التفاتة فوجد جعفرا والخليفة يتحدثان ، فقال لهما : ما الخبر يافتيان ؟ فقال جعفر : يامولاى خير لاشك ولاخفاء ، إن رفيقى هذا من التجار الكبار ، وسافر جميع الأمصار ، وصحب الملوك والأخيار ، وقال : إن الذى حصل من مولانا الخليفة فى هذه الليلة إسراف عظيم لم أر أحدا فعل هذا الفعل فى هذه الأقاليم ، لأنه شق كل بدلة بخمسمائة دينار وهذا شىء زائد فى العيار . فقال الشاب : ياهذا المال مالى والقماش قماشى وهذا من بعض إنعامى على الخدم والحواشى ، فإن كل بدلة شققتها هى لواحد من الندماء الحضار وقد رسمت لهم أن العوض على كل بدلة خمسمائة دينار فأنشد عند ذلك الوزير جعفر ، وقال :

بنت المكارم وسط كفك منزلا ... فجميع مالك للأنام مباح
وإذا المكارم أغلقت أبوابها ... يوما فأنت لقفلها مفتاح

قال : لما سمع الشاب من الوزير جعفر ذلك رسم له بألف دينار وبدلة، ثم دارت بينهم الأقداح وطاب لهم شراب الراح ، فقال الرشيد : ياجعفر اسأله عن الضرب الذى رأيناه على جنبيه حتى ننظر مايقول فى جوابه ، فقال الوزير : يامولاى لاتعجل وترفق بنفسك فالصبر أجمل ، فقال: وحياة رأسى وتربة العباس ، إن لم تسأله أخمدت منك الأنفاس ،

فعند ذلك إلتفت الشاب إلى الوزير ، وقال : مالك مع رفيقك وما الخبر ؟ فقال : خير يامَولانا، فقال : سألتك بالله إلا أخبرتنى بخبره ولاتكتم عنى شيئاً من أمره فقال : يامولاى إنه أبصر على جنبيك أثر سياط ، فتعجب من ذلك غاية العجب ، وقال : يالله العجب الخليفة يضرب وقصده يعلم ماالسبب ! فلما سمع الشاب هذا الكلام تبسم وقال : اللهم فنعم اعلموا أن حديثى عجيب وأمرى غريب لو كتب بالأبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر ثم تأوه وأنَّ واشتكى وبكى وأنشد :

حديثى عجيب حاز كل العجائب ... وحق إله قد عرف بالمواهب
فان شئتموا أن تسمعوا لى فانصتوا ... ويطرب هذا الجمع من كل جانب
واصغوا إلى قولى ففيه إشارة ... وإن كلامى صادق غير كاذب
لانى قتيل من غرام ولوعة ... وقاتلتى فاقت جميع الكواعب
لها مقلة كحلا وخد مورد ... ويقتلنى منها قسى الحواجب
وقد حس قلبى أن فيكم إمامنا ... خليفة هذا الوقت ابن الأطايب
وثانيكمو يدعى الوزير بجعفر ... حقيقة يدعى صاحبا وابن صاحب
وثالثكم مسرور سياف نقمة ... فإن كان هذا القول حقا بصائب
فقد نلت ماأرجو على كل حالة ... وجاء سرور القلب من كل جانب

قال : فعند ذلك حلف له جعفر أنهم لم يكونوا المذكورين ، فضحك الشاب وقال : الذى أعرفكم به أنى ما أنا أمير المؤمنين ، وإنما سميت نفسى بهذا الاسم لأبلغ ما أريد من أبناء المدينة واسمى : على بن محمد الجوهرى ، وإن أبى كان من الأعيان ومات وخلف لى أموالا لاتأكلها النيران من ذهب، وفضة ، ولؤلؤ ، ومرجان ، وياقوت ، وجوهر ،

وزمرد ، وبهرمان ، وحمامات ، وغيطان ، وبساتين ، وفنادق، وطواحين ، وعبيد ، وجوار ، وغلمان .

فلما كان فى بعض الأيام ، وأنا جالس فى حانوتى وحولى الحشم والخدم ، وإذا أنا بجارية قد أقبلت على بغلة وفى خدمتها ثلاث جوار كأنهن الأقمار ، ونزلت على دكانى وجلست ، وقالت : أنت على بن محمد الجوهرى ؟ فقلت لها : مملوك وعبد رقك ، فقالت : هل عندك عقد جوهر يصلح لمثلى ، فقلت : ياستى الذى عندى يحضر بين يديك فإن أعجبك شيء كان بسعد المملوك ، وإن لم يعجبك شيء منه فبسوء حظى ، وكان عندى مائة عقد جوهر فعرضت عليها الجميع فلم يعجبها شيء منها ، وقالت : أريد أحسن مما رأيت . وكان عندى عقد صغير شراؤه على والدى بمائة ألف دينار لم يوجد مثله عند أحد السلاطين الكبار، فقلت : ياسيدتى عندى عقد الفصوص والجواهر الذى لم يملكه أحد من الأصاغر والأكابر ، فقالت : أرنى إياه ؛ فلما رأته قالت : هذا الذى طول عمرى أتمناه ، ثم قالت : بكم ثمنه فى الأسعار ؟

فقلت : شراؤه على والدى بمائة ألف دينار . فقالت : ولك خمسة آلاف زائدة ، فقلت لها : ياسيدتى العقد وصاحبه فى الرق بين يديك ولاخلاف ، فقالت : لابد من الفائدة ولك الجميلة الزائدة ، وقامت عجلة، وركبت البغلة بسرعة وقالت : ياسيدى نور الدين باسم الله تكن صحبتنا لنأخذ الثمن ، فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن ، فقمت وقفلت الدكان وسرت معهن فى أمان إلى أن وصلنا الدار فوجدتها دارا عليها السعادة لائحة والافتخار وعلى بابها مكتوب بالذهب واللازورد العجيب هذه الأبيات :

ألا يـــادار لايدخلـــك حـــزن ولايغـــدر بصـــاحبك الزمـــان
فنعـم الـدار أنـت لكـل ضيـف إذا مـاضـاق بالضيـف المكـان

فنزلت الجارية ودخلت الدار وأمرت بجلوسى إلى أن يأتى الصيرفى ، فجلست على باب الدار ساعة لطيفة ، وإذا بجارية خرجت إلى : وقالت : ياسيدى ادخل إلى الدهليز فإن جلوسك على الباب قبيح ، فقمت إلى الدهليز وجلست على الدكة ساعة، وإذا بجارية خرجت إلى وقالت : ياسيدى تقول لك سيدتى : أدخل واجلس على جانب الإيوان حتى تقبض مالك ، فقمت فدخلت وجلست حيث أمرتنى ، وإذا بكرسى من الذهب وعليه ستارة من الحرير الأحمر ، وإذا بتلك الستارة قد رفعت فبان من تحتها الجارية التى اشترت منى العقد ، وقد أسفرت عن وجه كأنه دائرة القمر والعقد فى عنقها فاندهش عقلى وحار ذهنى ولبى[1] من رؤية تلك الجارية وحسنها .

فلما رأتنى قامت من على الكرسى وسعت نحوى ، وقالت : يانور الدين هل رأيت جميلة مثلى ؟ فقلت : ياسيدتى الحسن كله فيك وهو من بعض معانيك ، فقالت : ياعلى اعلم أنى أحبك وماصدقت بك إلا لما صرت عندى ، ثم إنها طوقت على وعانقتها ، فقبلتها وقبلتنى ، ثم جذبتنى وعلى صدرها رمتنى ؛ فلما علمت منى أنى أريد أن أهم بها ، قالت : ياعلى أتريد أن تجتمع بى فى الحرام ، والله لا كان من يفعل الآثام ويرضى بقبيح الكلام، فإنى بكر عذراء ما دنا منى أحد ولست مجهولة فى البلد، تعلم من أنا ؟ فقلت : لا والله وحلفت لها يمينا ، فقالت : أنا الست دنيا

---

(١) لبى الذهن : توقف وتردد من شدة الدهشة

بنت يحيى بن خالد البرمكى ، وأخى جعفر ؛ فلما سمعت منها ذلك جمعت خاطرى عنها ، وقلت : ياسيدتى مالى ذنب فى التهجم عليك أنت التى أطمعتينى فى إحسانك والوصول إلى جنابك ، فقالت : لابأس عليك ولابد من الإحسان إليك ، فإن أمرى بيدى والقاضى ولى عقدى ، والقصد أن أكون لك وتكون لى ، ثم إنها دعت بالقاضى والشهود وبذلت المجهود .

فلما حضروا قالت لهم : هذا نور الدين على بن الجوهرى قد طلب زواجى ، ودفع لى هذا العقد مهرى ، وأنا قد قبلت ورضيت ، ثم إن القاضى حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وكتب الكتاب ، فدخلت عليها بعد أن أعطت للقاضى شيئا ماله حساب ، وأحضرت المدام وأحضرت الأقداح بأحسن نظام ؛ فلما شعشعت الخمرة فى رؤسنا ، أمرت جارية عودية أن تغنى فأنشات تقول:

قلبى وآمالى بباب رجاكمو ... لاأبتغى فى الكون غير رضاكمو
ياجيرة جاروا علىَّ ببعدهم ... حنوا علينا وارحموا مضناكمو
حاشاكمو ياسادتى حاشاكمو ... صبا معنى مغرما بهواكمو
بالله جودوا وارحموا لمتيم ... لايستمع فيكم حديث سواكمو
مرسى اشتياقى فوق طول رضاكمو ... فإذا شجاه حسنكم ناجاكمو

قال : فأطربتنا الجارية بحسن غنائها ولم تزل الجوارى يغنين جارية بعد جارية وينشدن الأشعار إلى أن غنت عشر جوار ، فعند ذلك أخذت العود الست دنيا وأنشدت تقول :

أقسم بليل قوامك الميّاس ... إنى لنار الهجر منك أقاسى[1]
فارحم لصبّ فى هواك متيم ... يابدر تم أنت خير الناس
أنعم بوصلك كم أبيت بليلة ... احلو جمالك فى ضياء الكاس
مابين ورد جمعت ألوانه ... مع نرجس أيضا وحسن الآس[2]

قال الشاب : ثم إنى أخذت منها العود وضربت عليه وغنيت هذه الأبيات :

سبحان رب جميع الحسن أعطاك ... حتى بقيت أنا من بعض أسراك
يامن لها ناظر تسبى الأنام به ... خذى الأمان لنا من سحر عيناك
فالماء والنار فى خديك قد جمعا ... والورد جورى نبت وسط خداك
أنت الغرام لقلبى والنعيم له ... فما أمرك فى قلبى وأحلاك

قال : فلما سمعت منى ماقلت فرحت فرحا شديدا ، ثم إنها صرفت الجوارى وقمنا إلى أحسن مكان قد فرش لنا فيه من سائر الألوان ونزعت ماعليها من الثياب ، وخلوت بها خلوة الأحباب فوجدتها بنتا بكرا بختم ربها ففرحت بى وفرحت بها فرحا لم أجد فى عمرى ليلة أطيب منها وفيها أنشدت أقول

يا ليل دم لى لاأريد صباحا ... يكفى بوجه معانقى مصباحا
طوقته طوق الحمام بساعدى ... وجعلت كفى للمنام مباحا
هذا هو الفوز العظيم فمن لنا ... متعانقين فلا نريد براحا

---

(١) الميّاس من تميس الرجل : مشى وهو يتبختر ويتمايل كالأسد .
(٢) حسن الأس : حسن الأصل .

فأقمت عندها شهرا كاملا ، وقد نسيت الدكان والأهل والأوطان إلى ذات يوم من الأيام ، قالت : يانور الدين قد عزمت اليوم على المسير إلى الحمام وأنت اقعد على هذا السرير إلى أن أرجع إليك ، فقلت : سمعا وطاعة وحلفتنى أنى لاأنتقل من موضعى .فأخذت جواريها وذهبت إلى الحمام ، فوالله يا إخوانى ما لحقت تخرج من رأس الزقاق وإلا والباب قد فتح ودخلت منه عجوز وأى عجوز ، وقالت : يانور الدين الست زبيدة[1] تدعوك ، فقد سمعت بشبابك وطيب غنائك ، فقلت : والله على يمين أننى ما أقوم من مقامى حتى تأتى الست دنيا ، فقالت العجوز : يانور الدين لاتخل الست زبيدة تصير عدوتك : فقم كلمها وارجع فقمت من وقتى إليها والعجوز أمامى إلى أن أوصلتنى إلى الست زبيدة ؛ فلما وصلت إليها قالت : يانور الدين أنت معشوق الست دنيا ، فقلت : مملوكك وعبد رقك ، فقالت: صدق الذى وصفك بالحسن والجمال ، فإنك فوق الوصف والمقال ولكن غن لى شيئا حتى أسمعك ، فقلت : السمع والطاعة، فأتتنى بعود فغنيت عليه وأنشدت أقول :

قلب المحب مع الأحباب متعوب ... وجسمه بيد الأسقام منهوب
مافى الركائب من ذمت حملهم ... إلا وكان له فى الظعن محبوب
أستودع الله لى فى حيكم قمرا ... يهواه قلبى وعن عينى محجوب
يرضى ويغضب ما أحلى تَدَلُّله ... وكل مايفعل المحبوب محبوب

---

(١) زبيدة بنت جعفر : زوجة هارون الرشيد ، وابنة عمه وأم الخليفة الأمين .سيدة جليلة اشتهرت بإحسانها توفيت فى بغداد .وعطفها على الأدباء ، والشعراء ، ومن ذوات العقل والرأى والفصاحة ، ت[٢١٦هـ=٨٣١م]. انظر : أعلام النساء (١٧/٢).

فقالت لي : حفظ الله بدنك وطيب أنفاسك ، فلقد كملت فى الحسن والظرف والمعنى ، فقم إلى مكانك قبل أن تجىء إليه الست دنيا فلم تجدك فتغضب عليك ، فقبلت الأرض وخرجت العجوز أمامى إلى أن وصلتنى إلى الباب الذى خرجت منه .

فدخلت وجئت إلى السرير لأجلس ، فوجدتها جاءت من الحمام ونامت على السرير ، فقعدت عند رجليها وصرت أكبسها[1] ففتحت عينيها فرأتنى فجمعت رجليها ورفستنى فرمتنى من على السرير ، وقالت : يانور الدين خنت اليمين وكذبت وذهبت إلى الست زبيدة ووالله لولا خوفى من الهتيكة والفضيحة لخربت قصرها على رأسها ، ثم قالت لعبدها: يا صواب قم اضرب رقبة هذا النذل الكذاب فلا حاجة لنا به ، فتقدم ذلك الخادم إلى وشرط ذيلى وعصب عينى ، وأراد أن يضرب رقبتى فقامت إليها الجوارى الكبار والصغار ، وقلن لها : ياستاه ياهو بأول من أخطأ وماعرف خلقك وأنت ما تبغضينه وما فعل ذنبا يوجب أن تقتليه ، فقالت : والله لابد أن أوثر فيه أثراً ، ثم إنها أمرت بضربى فضربت على أضلاعى الضرب الذى رأيتموه وأمرت بإخراجى فأخرجونى وأبعدونى عن القصر ورمونى ، ورجعوا وتركونى فلممت نفسى فمشيت قليلا إلى أن وصلت إلى منزلى وأحضرت جراحا وأريته الضرب ، فلاطفنى وسعى فى مصالحى؛ فلما صح جسمى دخلت الحمام وزالت عنى الأوجاع والأسقام وجئت إلى الدكان وأخذت جميع مافيها وبعته وجمعت ثمنه ، واشتريت أربعمائة مملوك ماجمعهم أحد من الملوك يركب معى فى كل يوم مائتان وعملت

---

(١) كبس الشيء : شده وضغط عليه .

هذه المركب الحراقة بألف ومائتين من الذهب العين ، وسميت نفسى بالخليفة ورتبت من معى من الخدام كل واحد فى وظيفته ، ونـاديت كل من تفرج فى الدحلة ضربت عنقه بلا مهلة ولى على هذه الحالة سنة كاملة ولم أسمع لها بخبر ولا وقفت لها على أثر ، ثم إنه بكى وأنَّ واشتكى وأنشد يقول :

والله ما كنت طول الدهر ناسيها ... ولا دنوت إلى من ليس يدنيها
كأنها البدر فى تكوين خلقتها ... سبحان خالقها سبحان باريها
صدت ولاذنب لى إلا محبتها ... فكيف حال الذى قد بات ناعيها
وصيرتنى حزينا ساهيا دنفا ... والقلب قد حار منى فى معانيها

قال : فلما سمع هارون الرشيد كلام الشاب وما أبداه من الخطاب ، تعجب غاية العجب ، وقال : سبحان من جعل لكل شيء سببا ، ثم إنهم طلبوا من الشاب الانصراف وأضمر الرشيد للشاب الإنصاف وأن يتحفه غاية الإتحاف ، فانصرفوا من عنده سائرين وإلى قصر الخلافة طالبين .

ولما استقر بهم فى المنزل الجلوس غيروا ماكان عليهم من الملبوس ولبسوا أثواب الموكب والملك والزينة وكذلك مسرور سياف النقمة والعطب. فقال الخليفة لجعفر المهاب : ياوزير على بالشاب فخرج إليه فى الحشم والخدم وسار إلى منزل الشاب ، فخرج إليه وسلم عليه فقال له الوزير جعفر : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة لأمير المؤمنين وحامى حوزة الدين ، فسار معه إلى القصر وهو من الترسيم[1] عليه فى

---

(١) الترسيم : حسن المشى .

حصر ؛ فلما دخل إلى الخليفة ، ورفع الوزير الستر عن السدة الشريفة ، ورأى الشاب الخليفة عرفه فقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز وأثنى عليه ، وقال : عليك السلام يا أمير المؤمنين وحامى حوزة الدين وقامع المفسدين وإمام المتقين هناك الله بما أعطاك ، وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعداك وأنشد يقول :

لازال بابك كعبة مقصودة ... وترابها فوق الجباه رسوم
حتى ينادى فى البلاد بأسرها ... هذا المقام وأنت إبراهيم

فعند ذلك : تبسم الخليفة فى وجهه ورد عليه السلام وأظهر له الإحسان والإكرام ، وقربه إليه ، وأجلسه بين يديه وقال له : يا نور الدين أريد أن تحدثنى بحديثك الليلة يا مسكين ، فإنه من أعجب الأمور ، فقال الشاب : الفعو يا أمير المؤمنين أعطنى منديل الأمان ليهدأ روعى ويطمئن قلبى ، فقال الخليفة : لك الأمان ، فشرع الشاب يتحدث بالذى جرى له من أوله إلى آخره ، فعلم الخليفة من غير إطالة أن الصبى عاشق لا محالة فقال الخليفة : أتحب أن أردها إليك يا مسكين ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين ثم أنشد :

إن رمت إحسانا فهذا وقته ... أو رمت معروفا فهذا حينه

فعند ذلك التفت الرشيد إلى الوزير وقال له : احضر أختك الست دنيا بنت الوزير يحيى ، فقال له : السمع والطاعة فأحضرها فى الوقت ، فلما مثلت بين يديه قال لها : أتعرفين هذا من ؟ فقالت : أين للنساء معرفة بالرجال ، فتبسم وقال : يا دنيا قد عرفنا الحال وسمعنا الحكاية من أولها إلى آخرها ، وفهمنا باطنها وظاهرها ، والأمر لايخفى وإن كان مستورا ،

فقالت: كان ذلك فى الكتاب مسطورا وأنا أستغفر الله مما جرى وأسأل من فيض الفضل العفو عنى ؛ فضحك الخليفة ، وأحضر القاضى والشهود وعقد له ثانيا عليها وحصل له سعد السعود وأكمد العدو والحسود وجعله نديمه وزاد تكريمه وعاش بقية عمره فى أهنأ عيش ونعمة ، يجالس الخليفة فى الليل، والنهار تؤانسه الست دنيا ذات الفخار وهذا ما انتهى إلينا من التلخيص والله أعلم.

[٨٢] **ويحكى** : أن جعفر البرمكى نادم الرشيد ليلة ، فقال : ياجعفر بلغنى أنك اشتريت الجارية الفلانية ولى مدة أتطلبها ؛ فإنها بديعة الجمال ولى شوق زائد إليها فبعنيها ، قال : ليس على فيها بيع ، قال : هبنيها ، قال : ولا أهبها ، فقال : الرشيد زبيدة طالق منى ثلاثا إن لم تبعنيها أو تهبنيها ، وقال جعفر : زوجتى طالق منى ثلاثا إن بعتها أو وهبتها، ثم أفاقا من نشوتهما وعلما أنهما وقعا فى أمر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة .

فقال الرشيد : هذه واقعة ليس لها غير أبى يوسف[1] ، فاطلبوه وكان قد انتصف الليل ؛ فلما طلب قام فزعا ، وقال : ما طلبت فى هذا الوقت إلا لأمر حدث فى الإسلام ، ثم خرج مسرعا وركب بغلته ، وقال لغلامه : أصحب معك المخلاة واجعل فيها بعض شعير ، فإذا دخلنا دار الخلافة ودخلت فضع بين يدى الدابة شيئاً منه تشتغل به إلى حين خروجى ، فإنها لم تستوف علفها فى هذا الليلة ، قال : سمعا وطاعة .

---

(١) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب ، أبو يوسف : صاحب أبى حنيفة . كان قاضيا ، فقيها، عالما، حافظا ، ت[١٨٢هـ=٧٩٨م]. انظر : الإنتقاء (١٧٢) .

فلما دخل على الرشيد قام له وأجلسه على سريره بجانبه وكان لا يجلس معه غيره ، وقال له : ما طلبناك إلا لأمر مهم ، وهو كذا وكذا وقد عجزنا عن تدبير الحيلة؛ فقال : يا أمير المؤمنين هذا من أسهل مايكون ، ياجعفر بع أمير المؤمنين نصفها وهبه نصفها تبرأ من يمينكما ، فسر بذلك أمير المؤمنين وفعلا ، فقال الرشيد : أحضر الجارية فى هذا الوقت فإنى شديد الشوق إليها فأحضرت فقال للقاضى أبى يوسف : أريد وطأها فى هذا الوقت ولا أطيق الصبر إلى مضى مدة الاستبراء ، فانظر لى الحيلة فى ذلك ، فقال أبو يوسف : إئتونى بمملوك من مماليك أمير المؤمنين الذين لم يجر عليهم العتق ، فأحضر مملوك ، فقال أبو يوسف : يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أزوجها منه ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطؤ ها فى الحال من غير استبراء، فأعجب الرشيد ذلك أكثر من الأول ، فقال : أذنت لك ، فأوجب القاضى النكاح ثم قبله المملوك ، فقال له القاضى : طلقها ، فقال له : هذه صارت لى زوجة ، وأنا لا أطلقها فردد عليه القول فأبى وضاق صدر الخليفة لذلك ، وقال : قد اشتد الأمر أعظم مما كان .

فقال القاضى أبو يوسف : يا أمير المؤمنين رغبه بالمال ، فقال : طلقها ولك مائة دينار، قال : لا أفعل ، قال : مائتا دينار ، قال : لاأفعل ، إلى أن عرضوا عليه ألف دينار ، وهو يمتنع ، وقال للقاضى : الطلاق بيدى أم بيد أمير المؤمنين أم بيدك ؟ قال : بل بيدك أنت ، قال : والله لاأفعل أبدا فاشتد غضب أمير المؤمنين ، فقال القاضى : يا أمير المؤمنين لا تحزع فإن الأمر هين أعتق الجارية ، ثم ملك هذا العبد للجارية ، قال : أعتقتها وملكته لها ، فقال لها القاضى : قولى قبلت ، فقالت : قبلت ، فقال القاضى : حكمت بالتفريق بينكما لأنه دخل فى ملكها فانفسخ النكاح ، فقام أمير

المؤمنين على قدميه ، وقال : مثلك من يكون قاضيا فى زمانى ، واستدعى بأطباق الذهب فأفرغت بين يديه ، وقال للقاضى : هل معك شىء توعيه فتذكرمخلاة البغلة، فاستدعى بها فملئت له ذهبا فأخذها وانصرف .

فلما أصبح قال : لخلانه انظروا إلى من تعلم العلم فليتعلمه هكذا ، فإنى أعطيت هذا المال العظيم فى مسألتين أو ثلاث .

فانظر أيها المتأدب إلى لطف هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن منها دلال الوزير على قلب أمير المؤمنين ، وحلم الخليفة ، وزيادة علم القاضى ؛ فرحم الله أرواحهم أجمعين ، ولكن مسألة الإستبراء لم تتخرج إلا على مذهب أبى حنيفة فخرجها أبو يوسف على قواعد مذهبه لأنه حنفى المذهب ، والله أعلم ، انتهىمن حلبة الكميت .

[٨٣] ومن كلام إبراهيم الموصلى رحمه الله تعالى :

هجرتك حتى قيل لايعرف الهوى ... وزرتك حتى قيل ليس له صبر
فيا هجر ليلى قد بلغت بى المدى ... وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
ويا حبها زدنى جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

[٨٤] **ومن الحكايات اللطيفة** : أن بعض الملوك قصد التفرج على المجانين ؛ فلما دخل عليهم رأى فيهم شابا حسن الهيئة نظيف الصورة يرى عليه آثار اللطف ، وتفوح منه شمائل الفطنة فدنا منه ، وسأله مسائل فأجابه عن جميعها بأحسن جواب فتعجب منه عجبا شديدا ، ثم إن المجنون قال : للملك قد سألتنى عن أشياء فأجبتك ، وإنى سائلك سؤالا واحدا ، قال : وماهو ؟ قال : متى يجد النائم لذة النوم ؟ ففكر الملك

ساعة ، ثم قال : يجد لذة النوم حال نومه ، فقال المجنون : حالة النوم ليس له إحساس، فقال الملك: قبل الدخول فى النوم ، فقال المجنون : كيف توجد لذته قبل وجوده ، فقال الملك : بعد النوم ، فقال المجنون : أتوجد لذته وقد انقضى ، فتحير الملك وزاد إعجابه ، وقال لعمرى : إن هذا لايحصل من عقلاء كثير ، فأولى أن يكون نديمى فى مثل هذا اليوم ، وأمر أن ينصب له تخت بإزاء شباك المجنون ، ثم استدعى بالشراب فحضر فتناول الكاس وشرب ، ثم ناول المجنون فقال : أيها الملك أنت شربت هذا لتصير مثلى ، فأنا أشربه لأصير مثل من ؟! فاتعظ الملك بكلامه ورمى القدح من يده ، وتاب من ساعته ، والله أعلم .وهذه الحكاية لها بقية أعرضنا عنها وهذه على سبيل الاختصار أيضا .

[٨٥] **حُكى والله أعلم بفيه وأحكم** : أن الرشيد أرق ذات ليلة أرقا شديدا ، فاستدعى جعفرا وقال : أريد منك أن تزيل ما بقلبى من الضجر ، فقال الوزير: يا أمير المؤمنين كيف يكون على قلبك ضجر ، وقد خلق الله أشياء كثيرة تزيل الهم عن المهموم والغم عن المغموم وأنت قادر عليها ، فقال الرشيد : وماهى ياجعفر ؟ فقال له : قم بنا الآن حتى نطلع فوق سطح هذا القصر ، ونتفرج على النجوم واشتباكها وارتفاعها ، والقمر وحسن طلعته لأنه وجه من تحب كما قيل :

كأنما حسن السماء وزرقتها ... قد رقمت فيها أفانين الصور

فكأنما البدر حين لاح لنا ... فى بعض ليل من غلاف قد ظهر

فقال الرشيد : ياجعفر ماتلتفت نفسى إلى شىء من ذلك فقال : يا أمير المؤمنين افتح شباك القصر الذى يطلع على البستان ، وتفرج على

حسن تلك الأشجار ، واسمع الناعورة[1] التى كأنها آنين محب فارق محبوبه ، وهى كما قال فيها بعض واصفيها:

وناعورة حنت وغنت وقد غدت تعبر عن حال المشوق وتعرب
ترقص عطف البان تيها لأنها تغنى له طول الزمان ويشرب

وإما أن تنام يا أمير المؤمنين إلى أن يدركنا الصباح ، فقال : ياجعفر ماتلتفت نفسى إلى شيء من ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين افتح الشباك الذى يطلع على الدجلة حتى نتفرج على تلك المراكب والملاحين ، هذا يصفق وهذا ينشد : مواليا ، وهذا يقول : دوبيت وهذا يعمل كيت وكيت، فقال الرشيد : ماتلتفت نفسى إلى شيء من ذلك .

قال جعفر : قم يا أمير المؤمنين حتى ننزل إلى الإصطبل الخاص وننظر إلى الخيل العربيات ونتفرج على حسن ألوانها مابين أدهم كالليل إذا أظلم ، وأشقر ، وأشهب ، وكميت ، وأحمر ، وأبيض ، وأخضر ، وأبلق ، وأصفر، وألوان تحير العقول ؛ فقال الرشيد : ماتلفتت نفسى إلى شيء من ذلك ، فقال جعفر : يا أمير المؤمنين عندك فى قصرك ثلثمائة جارية مابين: جنكية إلى عودية إلى دفية إلى قانونية إلى زامرة إلى مغنية إلى راقصة إلى سنطيرية أحضر الجميع وأحضر العقار المروق فلعل أن يزول مابقلبك من الضجر ، فقال : ماتهم نفسى إلى شيء من ذلك ، فقال جعفر : يا أمير المؤمنين مابقى إلاّ ضرب عنق مملوكك جعفر فإنى قد عجزت عن إزالة هم مولانا ، فقال : ياجعفر أما سمعت قول ابن عمى رسول الله ﷺ فقال: من فم مولانا أحلى، فقال الرشيد قال : رسول الله ﷺ «فرح أمتى

---

(١) الناعورة : آلة لرفع الماء .

فى ثلاث : أن يرى بعينه شيئاً ما رآه ، أو يسمع شيئاً ما سمعه ، أو يطأ مكانا ما وطئه» .فيتفق ياجعفر أن يكون فى بغداد مكان ماوطئناه أوشىء ماسمعناه أو موضع مارأيناه؟ فقال جعفر : أتاذن لى ياأمير المؤمنين أن أطلع إلى مجلس النوبة . وأنظر أحدا من المسافرين أحضره بين يدى أمير المؤمنين لعله أن يحدثك بحديث ما سمعته ، فقال الرشيد : قم وافعل . فقام جعفر وطلع وعاد بسرعة بالشيخ أبى الحسن الخليع الدمشقى المسامر.

قال : فلما رأى أمير المؤمنين سلم وأحسن وترحم فأبلغ ، ثم قال: ياأمير المؤمنين وحامى حوزة الدين وابن عم سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين أطال الله بقاك ، وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعدائك لا خمدت لك نار ولا اغتيظ لك جار ، ثم أنشد يقول :

دام لك العز والبقاء ... ما اختلف الصبح والمساء
ودمت مادامت الليالى ... بمدة ما لها انقضاء
الناس ناس بكل أرض ... وأنت من فوقهم سماء

قال : فرد على الشيخ السلام ، وقال له : اجلس يا أبا الحسن ، وحدثنا بحديث عجيب مليح لم نسمعه قط ، فقال الشيخ : ياأمير المؤمنين أحدثك بشىء سمعته بأذنى أو بشىء رأيته بعينى ؟ قال الرشيد : ياشيخ أبو الحسن الذى تراه العين أحسن من الذى تسمعه الأذن .

فقال الشيخ : ياأمير المؤمنين افرغ لى عن ثلاثه أشياء منك؛ فقال: ما الثلاثة ؟فقال : ذهنك ،وسمعك ،وقلبك.فقال الرشيد :هات يا أبا الحسن .

فقال : يا أمير المؤمنين لى عادة أنى أسافر فى كل سنة إلى البصرة للأمير محمد بن سليمان الزينبى ، وأقعد عنده أحدثه الأسمار وأورد له الأخبار وأنشد له الأشعار ولى عليه رسم ألف دينار آخذها وأعود إلى بغداد، فاتفق لى فى سنة من السنين أنى سافرت إلى البصرة على عادتى ودخلت على الأمير محمد بن سليمان وجلست عنده اليوم الأول والثانى والثالث ؛ فركب إلى الصيد وتركنى فى منزله وأوصى أرباب دولته بخدمتى ، وإكرامى إلى أن يعود وأوصى الطباخ الذى له أن لا يطعمنى إلا شيئاً تشتهيه نفسى فاشتهيت السمك ، فقلت للطباخ : تعمل من السمك عدة ألوان فأكلت وطاب لى الأكل حتى ثقل على فؤادى ، فقلت : مايصرف عنى هذا إلا المشى ولى عدة أسفار إلى البصرة ما أعرف فيها مكانا وأريد اليوم أجعلها حجة وفرجة، ثم إنى نزلت أتمشى فى شوارع البصرة فعطشت عطشا شديدا وناهيك بعطش السمك ، فقلت فى نفسى : إن تناولت شربة من السقاء لاتطيب نفسى لأنه يشرب منه أصحاب الأمراض ، وكبرت نفسى على أن أحملها إلى شاطئ الدجلة ، وقلت : مالى إلا أن أقصد بعض دور المحتشمين وأطلب منها شربة من ماء ، فأتيت إلى درب وفى ذلك الدرب خمسة دور داران مقابلتان لداريين ودار صدرانية قد قامت من التراب وتعلقت بأذيال السحاب ، ولها باب مقنطر مزخرف بمصاطب طولانية مفروش عليها حصر عبدانية والباب ساج مصفح بصفائح الذهب الوهاج ومسامير الفضه ، وستر من الحرير الأصفر المدثر مكتوب عليه هذه الأبيات :

ألاَ يادار لايدخلك حزن ... ولا يغدر بصاحبك الزمان

فنعم الدار أنت لكل ضيف ... إذا ما ضاق بالضيف المكان

قال : فقلت فى نفسى مِنْ هذه الدار أشرب الماء ، فأتيت إلى الباب فسمعت صوتا ضعيفا من فؤاد نحيف وقائلا يقول:

بالله ربكما عوجا على سكنى	وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بى وقولا فى حديثكما	ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فإن تبسم قولا فى ملاطفة	ماضر لو بوصال منك تسعفه
وإن بدا لكما فى وجهه غضب	فغالطاه وقولا ليس نعرفه

قال : فقلت ياحبذا إن كان قائل هذا الصوت شخصا صورته على قدر صوته ، واحتشمت ثم إنى قويت قلبى ورفعت الستر ودخلت الدهليز إلى أن انتهيت إلى آخره ومددت طرفى ، وإذا أنا بدار قد أقبلت عليها السعادة وزالت عنها الشقاوة ورأيت فى صدر المكان إيوانا وبركة وشاذروانا ، وفى ذلك الإيون تخت من الساج ، وقوائمه من العاج مصفح بالذهب الوهاج ، وفوق التخت فراش من الحرير الأطلس ومسند مزركش، وعليه جارية نائمة خماسية القد قائمة النهد ، لا بالطويلة الشاهقة ولا بالقصير اللاصقة، أشهر من علم تربيه العجم على أكتاف الخدم ، بخد أسيل وطرف كحيل ، وخصر نحيل ، وردف ثقيل إن أقبلت فتنت ، وإن ولت قتلت ، كما قال فيها بعض واصفيها :

كما اشتهت خلقت حتى إذا اعتدلت	فى قالب الحسن لا طول ولا قصر
جرى بها الشحم حتى دار أعكنها	طى القباطى فلا سمر ولاغور
كأنما أفرغت من ماء لؤلؤة	فى كل جارحة من حسنها قمر

إلاأن الجارية يا أمير المؤمنين قد حكمت عليها يد الأيام ونزلت بها جميع الأسقام وعند رأسها طبيب وهو يحس يدها ، ويقول : ياست بدور

الضارب ضارب، والساكن ساكن ، ولا برد ، ولاحمى ولاشيء تشتكيه من سهر الليل ، وجريان الدمع، لعل الست فى قلبها هوى من أحد ؛ فلما سمعت كلام الطبيب أنشدت تقول :

إذا هممت بكتمان الهوى نطقت ... مدامعى بالذى أخفى من الألم
فإن أبح أفتضح من غير منفعة ... وإن كتمت فدمعى غير منكتم
لكن إلى الله أشكو ما أكابده ... من طول وجد ودمع غير منصرم

قال : فنهض الطبيب قائما على قدميه ، فناولته صرة فيها عشرون دينارا ، ثم التفتت إلى ، وقالت : من أين ياشيخ ؟ فقلت لها : من بغداد حملنى العطش إلى أن أتيت إلى هنا . فقالت : لعل أن يكون على يدك فرجى، فأنا أكتب لك ورقة فتسأل عن بيت الأمير عمرو وتعطيها له فإن رددت علىَّ الجواب ، فأنا أعطى لك خمسمائة دينار ، ثم استدعت بدواة وورق وكتبت وهى تقول : أما بعد ، يعجز لسانى ويكل جنانى عن بث الأشواق ولكن أسأل الكريم الخلاق أن يمن علينا بالتلاق بالسعد الرائق والأمر الموافق وأنا القائلة حيث أقول :

سرورى من الدنيا لقاكم وقربكم ... وحبكم فرض وما منكم بد
ولى شاهد دمعى إذا ما ذكرتكم ... جرى فوق خدى لا يطاق له رد
إذا الريح من نحو الحبيب تنسمت ... وجدت لمسراها على كبدى برد
فوالله ما أحببت ما عشت غيركم ... ولا كنت إلا ماحييت لكم عبد
سلام عليكم ما أمر فراقكم ... فلا كان منكم ما جرى آخرا عهد

أما بعد ، فهذا كتاب ممن ليلها فى نحيب ، ونهارها فى تعذيب ، لاتركن إلى عاذل ولا تصغى إلى قائل ، قد غلبتها أيدى الفراق ، ولو

شرحت بعض ماعندها للفسيح ضاق وما وسعته الأوراق ، ولكن أسأل الكريم الخلاق رافع السبع الطباق أن يمن علينا بالتلاق وأنشدت تقول :

أحبة قلبي وإن جرتمو ... علىَّ فكل المنى أنتمو
رحلتم وفي القلب خلفتم ... لهيبا فهلا ترفقتمو
وأودعتمو يوم ودعتمو ... بأحشاى نارا وأضرمتمو
وما كنتمو تعرفون الجفا ... على شوم بختى تعلمتمو

فألف ألف لا أوحش الله منكم والسلام منى عليكم عدد شوقى إليكم، ما حنَّ الغريبُ إلى الأوطان ، وغرد حمام الأيك[1] على البان ، فرحم الله من قرأ كتابى ، وتعطف برد جوابى وأنشدت تقول :

أحبابنا ما رقَا دمعى لفرقتكم ... يوم الفراق ولا كفت غواديه
بنتم فلم يبق لى من بعدكم جلد ... ولا فؤاد ولا صبر أرجيه
فكم أمن فؤادى بالهوى كذبا ... ولست أول من بانت غواشيه[2]

قال : ثم إنها طوت الكتاب ، وختمته بعد أن نثرت فيه فتات المسك والعنبر وناولتنى إياه ، فأخذته وأتيت إلى دار الأمير عمرو ، فوجدته فى الصيد والقنص ، فجلست على بابه ساعة أنتظره وإذا به أقبل وهو راكب على حصان أشقر من الخيل الضمر[3] يساوى ملك كسرى وقيصر ، من

---

(١) الأيك : الشجر الكثير الملتف .

(٢) بانت غواشيه ، يعنى : ظهر ما فى قلبها من العشق وشدة الشوق .

(٣) الخيل الضمر : هى التى تربط ويكثر لها الماء والعلف حتى تسمن ثم يقلل لها الماء والعلف مدة ويحملونها تركض فى الميدان حتى تهزل ، ومدة التضمير عند العرب أربعون يوماً .

أولاد الأبجر الذى كان لعنتر إن طلب لحق وإن طلب لم يلحق ، والأمير على ظهره كأنه البدر فى منزلته ، والمماليك قد أحدقوا به كما تحدق النجوم بالقمر ، وهو بخد أسيل ، وطرف كحيل ، وخصر نحيل ، وردف ثقيل ، وله عذار[1] أخضر فوق خد أحمر ، وثغر جوهر ، وعنق مرمر كما قال فيه ابن معشر :

قمر تكامل فى نهاية حسنه ... مثل القضيب على رشاقة قده
فالبدر يطلع من ضياء جبينه ... والشمس تغرب فى شقائق خده
ملك الجمال بأسره فكأنما ... حسن البرية كلها من عنده

قال أبو الحسن : فما أمهلته دون أن قبلت ركابه ؛ فلما انظر إلىَّ ترجل ، واعتنقنى وأخذ بيدى وأدخلنى الدار وأنشد يقول :

ما أظن الزمان يأتى بهذا ... غير أنى رأيته فى منامى

قال : فلما جلس على حافة البركة أقبل علىَّ يحدثنى ساعة ، وإذا بالمائدة قد وضعت بين أيدينا وإذا عليها من ألوان الطعام مادرج وتطاير فى الأسحار ، وتناكح فى الأوكار من : قطا ،وسمان ، وأفراخ حمام ، وبط مسمن ، ودجاج محمر ، وأفراخ رضع ، وبعلبكات السكر ، فقال : لى بسم الله ياشيخ أبو الحسن ، فقلت : لا والله يا مولاى ما أكلت لك طعاما ولا شربت لك مداما إلا أن قضيت لى حاجتى ، فقال : يا أبا الحسن كان هذا من الأول أين الكتاب الذى للست بدور ، فقلت : ياسيدى وماهى الست بدور ؟ فقال : التى جئت من عندها تطلب شربة من الماء منها ،

---

(١) عذار : الشعر الذى يحاذى الأذن .

ووجدت عندها الطبيب وحرى لـك معهـا مـاهو كيـت وكيـت ، فقلـت : يامولاى أكنت حاضراً فقال : لوكنت حاضراً فلأى شيء كتبت الكتـاب ، فقلت : هل جاء أحد من عندها وأعلمك ، فقال : إنـه لا يجسر أحـد مـن غلمانها يقابلنى ، فقلت : ولا راح أحد من عندك إليها ، فقال : هى أخس وأحقر من أن يمضى إليها أحد مـن عنـدى ، فقلـت : يـا سـيدى الغيـب لا يعلمه إلا الله تعالى والوحى مانزل إلا على رسول الله ﷺ ، فقال : ياعاقل أما سمعت قول القائل :

قلـوب العاشـقين لهـا عيـون ... تـرى مـا لا يـراه الناظرونـا
وأجنحـة تطـير بغـير ريش ... إلى ملكـوت رب العالمينـا

فقلت : صدقت يامولاى ، ثم ناولته الكتـاب ففضـه وقـرأه ثـم بصـق وداسه برجله ورماه فى البركة فصعب علىَّ ؛ فلما علم منى ذلك قال : مـم غيظك أقعد الليلة عنـدى كـل واشـرب وخـذ منى الخمسـمائة دينـار التى وعدتك بها الست بدور ، وأنا أحب إليك منها ، وأنشد يقول :

رأيـت شـاة وذئبـا وهـى ماسـكة ... بأذنـه وهـو منقـاد لهـا سـارى
فقلـت أعجوبـة ثـم إلتفـت أرى ... مـابين نابيـه ملقـى نصـف دينـار
فقلـت للشـاة مـاذا الإلـف بينكمـا ... والذئـب يسـطو بأنيـاب وأظفـار
تبسمت ثم قـالت وهى ضاحكـة ... بالتبر يكسر ذاك الضيغم الضارى[1]

قال : فلما سمعت كلامه يا أمير المؤمنين ، تقدمت وأكلت بحسـب الكفاية والنهاية ، ثم انتقلنا إلى مجلس الشراب وقدمت بين أيدينـا البواطى

---

(١) الضَّيْغَم : الذى يعض ويفترس بأسنانه ، وجمعها ضياغم.

والسلاحيات ، فتناول الأمير عمرو وشرب وسقانى وأنا أحدثه وأنادمه إلى أن قرب الغروب ، فقال : يا أبا الحسن ما لذة الأمير إذا شرب إلى المساء من غير غناء ، فقلت : يقال الشراب بلا طرب ولاسماع الدن[1] أولى به .

فقال لى : قم بسم الله فقمت معه إلى مجلس وحضيرة[2] تنقط بالذهب واللازورد العجيب وهى مزخرفة ، قد عبقت أزهارها ، وضحكت سلاحيتها ، وصفت بواطيها ، ورفعت أقداحها ، فجلس الأمير عمرو وأجلسنى بجانبه وقدمت بين أيدينا الشموع وأسرجت القناديل ، فنظرت إلى مجلس عجيب وحظيرة مليحة ، ثم قلت : يامولاى قد تقدم القول : إن الشراب بلا سماع الدن أولى به ؛ فصفق بكف على كف ، وإذا بثلاث جوار قد أقبلن كأنهن الأقمار ، الواحدة : تحمل عودا ، والثانية : تحمل دفا ، والثالثة : تحمل مزمارا ، ثم نقرت الدفية على دفها، وأصلحت العودية عودها ، وزمرت الزامرة بمزمارها فخيل لى أن المجلس الذى نحن فيه يرقص بنا ، ثم إن الدفية غنت تقول :

أحبابنا إننى من يوم فرقتكم ... على فراش الضنى مازلت مضطجعا
داويت قلبى بحسن الصبر بعدكم ... عسى يفيق من الأسقام مانفعا

فوالله ياأمير المؤمنين لقد طربت غاية الطرب من حسن صوتها ، فلما فرغت الدفية ، ضربت العودية على عودها طرقا عديدة ، ثم رجعت إلى الطريقة الأولى وأنشدت تقول :

---

(١) الدن : الذباب .

(٢) حضيرة : جماعة القوم . قيل هى فى الأصل تطلق على الذين يحضرون المياه أى ينزلون عليها فيقيمون بها ولايرحلون عنها .

أمؤنس طرفى لا خلا منك ناظرى ... وجامع شملى لا خلا منك مجلسى
ويا ساكنا قلبى ومافيه غيره ... يحل فما استوحشت فيه لمؤنسى
وبالله يا عين الورى من ملاحة ... تصدق على صب من الصبر مفلس
أنلنى الرضا أغيظ به العدا ... ويا موحشى من بعد ماكان مؤنسى
رضاك الذى إن نلته نلت رفعة ... وألبسنى فى الناس أشرف ملبس

قال : والله ياأمير المؤمنين لم نتمالك عقولنا من الطرب ثم التفتت العودية نحو الدفية ، وقالت لها : يافلانة أتحسنى أن تقولى مثل هذا ؟ فقالت الدفية : أنا أحفظ أبياتا ما أظن أنك تحفظين لهن وزنا ولا قافية ولا عروضا ، فقالت العودية : هات ماعندك ، فنقرت الدفية على دفها بأناملها ورفعت صوتها وهى تقول :

كرر وردد ذكرهم فى مسمعى ... فهم الشفا لتألمى وتوجعى
أقصر بعذلك ياعذول فإن لى ... قلبا لعذلك لايفيق ولايعى

فقالت لها العودية : أنا أحفظ الوزن والقافية والعروض ، فقالت لها الدفية : هات فضربت العود طريقة من اثنين واثنين ، وأربعة وأربعة ، وثمانية وثمانية ، وستة عشر وستة عشر ، ثم عادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول :

إن لم أسل وادى الأسيل بأدمعى ... اعلم بأنى فى الصبابة مدعى
يا سعدان حثت الغوير وعاينت ... عيناك بأن المنحنى فلترجع
وخذ الحذار من الغزال المختفى ... واحذر بصيدك لحظ ذات البرقع

قال : والله يا أمير المؤمنين فلقد طربنا حتى قام بعضنا ورقص ، فلما فرغت الجارية قال لها سيدها ، غنى لى عن الذى بقلبى وحدى ، فعندها ساوت عودها وقالت :

ما كنت أول راسق صبا صبا ... نحو التصابى وهو فى عشر الصبا
فعلام يعذلنى العذول على البكا ... لولا الغرام لها غدوت معذبا
حكم الهوى بحكمه فى مهجتى ... ولقد غذا قلبى به متقلبا
يا للرجال خبا الهوى بحشاشتى ... نارا فما تخبو على ذاك الخبا
ولقد سبى قلبى غزال لو رأت ... بلقيس طلعته لما سكنت سبا
ولقد هربت من الغرام فقال لى ... مهلا رويدا أين منى تهربا

فلما سمع الأمير عمرو ذلك صرخ ووقع على الأرض مغشيا عليه فقالت الجارية : يامولاى إنه قد نام سيدى ، فإن اخترت أن تنام فقم نم فى مرقدك ، وإن اخترت الشراب فدونك ونحن بين يديك إلى الصباح ، فقمت ونمت .

فلما أصبحت قمت وسألت عن الأمير عمرو ، فقالت بعض الجوارى: إنه قد سرح إلى الصيد والقنص ، فأخذت شاشا لألبسه فرأيت تحته كيسا فيه ألف دينار فأخذته وأتيت إلى الست بدورو إذا بها واقفة خلف الباب تنتظر وهى تقول :

يا رسولى إلى الحبيب اعتذر لى ... فلعل الحبيب يقبل عذرى
ثم قل للحبيب عنى بلطف ... أى ذنب جرى فأوجب هجرى

فلما رأتنى قالت : ياشيخ أقمح أم شعير ؟ فقلت : لا والله ماهو إلا زوان والله مارضى يقرأ مكتوبا ، ولا يرد جوابك ، فرمت إلىّ صرة فيها مائة دينار ، وقالت : اذهب يا أبا الحسن مامضى الليل وأتى النهار على شىء إلا وأزاله وغيره ، ويغير الله ما فى القلوب ، ثم إنها أغلقت الباب فى

وجهى ، ومضتِ وعدت إلى دار الأمير محمد بن سليمان الزينبى فلقيته قد جاء من الصيد فقعدت عنده أياما ، وأخذت رسمى وعدت إلى بغداد .

ثم إنى فى السنة الثانية سافرت إلى البصرة على ماجرت العادة به ، ومضيت إلى الأمير عمرو بن جبير الشيبانى ، لأتمتع بذلك الوجه المليح والقد الرجيح فوجدت الدار متغيرة الآثار والعبيد لابسين السواد ؛ فلما رأيت ذلك بكيت وأنشدت أقول :

يا دار أين ترحل السكان ... وسرت بهم من بعدها الأظعان
بالأمس كان بك الضياء مع الهنا ... واليوم فى عرصاتك الغربان

فسمعنى بعض الغلمان ، فظهر لى وقال : من ذا الذى يبكى على ديارنا ، ويندب منازلنا كفى بنا ماعندنا ، فقلت له : ياعبد الخير إن صاحب هذه الدار كان من أصدق الناس إلىَّ ، فما فعل به الزمان ؟ فقال لى الغلام : يامولاى هو فى قيد الحياة ، وهو يطلب الموت فلا يجده ، فقلت له : بالله عليك خذ لى الطريق ، فقال لى الغلام : يامولاى من أقول؟ فقلت : قل الشيخ أبو الحسن الخليع الدمشقى المسامر، قال : فعبر الغلام وغاب ساعة وعاد وقال لى : بسم الله ادخل فدخلت فوجدت الأمير عمراً نائما وعند رأسه طبيب وهو يحس يده ، ويقول له : يا مولاى الضارب ضارب ، والساكن ساكن ، ولابرد ولا حمى ولا تشتكى غير سهر الليل وجريان الدمع لا يكون المولى إلا مسحورا ، فلما سمع الأمير عمرو كلام الطبيب بكى وأنشد يقول :

قال الطبيب لقومى حين جس يدى ... هذا فتاكم ورب البيت مسحور

فقلت ويحك قد قاربت فى صفتى عين الصواب فهلا قلت مهجور

ثم إنه ناوله كاغداً[1] فيه بعض دنانير ، فأخذها الطبيب وانصرف ، ثم إلتفت الأمير عمرو إلىّ ، وقال : ياشيخ أبو الحسن أما تنظر إلى هذا الحال الذى وقعت فيه ، فقلت له : حاشاك من الأسواء ماسبب ذلك ؟ قال : ما أعرف له سببا إلا أن هجر الست بدور قد قتلنى ، وحبها أضنى فؤادى ، فقلت : يا مولاى بالعام الماضى تركتك أميرا واليوم أتيت لقيتك أسيرا ، فما السبب ؟ فقال الأمير عمرو : ياشيخ إنى فى ليلة من الليالى ركبت فى الشط وقد شحنت مركبى من سائر الأزهار ، والفواكه ، والرياحين ، والطعام ، والمدام ، وأوقدت الشموع حتى صارت مثل ضوء النهار وقد غرقنا فى البسط وبقينا فى لعب وضحك إلى ثلث الليل الأول وإذا قد أقبل من صدر الشط مركب وهى تغرب بالطارات والدفوف وتضىء كضوء الشمس ، وفيها وهج عظيم فقلت : للملاح قدم بنا حتى نتفرج وننظر أينا أحسن تعبئة مركبنا أو هذه المركب ؟ فمددت عينى فرأيت صاحبتى الست بدور وهى بين جواريها وغلمانها تلعب وتضحك وهى مثل اسمها اسم على مسمى ؛ فلما وقعت عينى كأنما رمت فى قلبى جمرة نار فقلت فى نفسى : مافارقت هذا الوجه المليح بذنب ثم إنى تذكرت العهد القديم الذى كان بيننا فلم أقدر صبرا فمددت يدى وأخذت تفاحة ورميتها إلى الست بدور ، فالتفتت فرأتنى فقالت : للملاح ارجع بنا إلى البر نحن خرجنا هذه الليلة تنشرح ، فأرسل الله لنا هذا الفتى ينغص علينا عيشنا ؛

---

(١) كاغِد : القرطاس يوضع فيه الدنانير .

فلما سمعتها تشتمنى أضرمت[1] النار فى قلبى ، ثم قلت : لنفسى أنت المطلوب فصرت الطالب فلم يهنأ لى عيش فى هذه الليلة ، وقلت : للملاح ارجع إلى الشط ، ثم إنى نزلت ومضيت إلى منزلى وما ذقت طعم المنام .

فلما أصبحت لم يقر لى قرار وصرت أترقب أن يأتى أحد من عندها ثلاثه أيام ، فلم يأت أحد فبعثت من يعرض بذكرى لها فدعت عليهم وشتمتهم ، فكتبت لها بعد ذلك ألف كتاب ، فلم ترد لى جوابا وقد رميت روحى على كل كبير فى البصرة فيدخلون عليها ، فلم تقبل ولم تزدد إلا جفاء ولى مدة أنتظرك ياشيخ أبو الحسن ، حتى أبعث معك كتابا وأنا أحلف لك إن هى ردت لك جوابه أعطيتك ألف دينار ، وإن لم ترد جوابه أعطيتك مائة دينار ، فقلت له : اكتب فدعا بدواة وقرطاس ، وكتب فى أول الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من متيم يشكو إليك الصبابة ، ويسألك بالله أن تردى جوابه ، أما بعد ؛ فإنه يعجز لسانى ويكل جنانى مما أنا فيه من طول السهر ودوام الفكر ، وبكى لبكائى صم الحجر فألف ألف لا أوحش الله منك والسلام عليك . ثم ختم الكتاب ، وناولنى إياه ، فأخذته وأتيت به إلى دار الست بدور ، فلقيت الباب على غير تلك الحالة الأولى عليه ستر مرخى وبواب وخادم .

فقلت : لا إله إلا الله ، كان هذا الباب بالأمس خاليا من الأصحاب واليوم عليه خادم وبواب ، ثم إنى تقدمت إلى الخادم وقلت له : قم يا ولدى ادخل واستأذن على مولاتك الست بدور وقل لها : الشيخ أبو

---

(١) أضرمت النار : اشتعلت .

الحسن الخليع الدمشقى قد أتى ويطلب التمثل بين يديك فغاب الخادم ثم عاد مسرعا ، وقال : بسم الله ادخل فدخلت الدهليز فسمعت بدور هى تقول:

ولأصبرن على الزمان وجوره حتى يعود كما أريد وأشتهى

قال : فلما دخلت رأيتها قاعدة على حافة البركة وبين يديها جارية تروح عليها فتقدمت ، وقبلت يدها وجلست فنظرت ، وإذا عليها غلالة لازوردية[1] وجميع جسدها بائن من تحت الغلة ، كأنه عمود مرمر ، وعلى الغلالة مكتوبة هذة الأبيات :

أقبلت فى غلالة زرقاء لا زوردية كلون السماء
فتأملت فى الغلالة ألقى قمر الصيف فى ليالى الشتاء
ليتنى كنت للمليحة عقدا أو برقعا للوجه مثل الرداء
أو قميصا من الحرير خفيفا لاصقا للفؤاد والأحشاء
ضربتنى بخنجر العشق حتى صرت ملقى مختضبا بدمائى
تركتنى على الطريق ونادت من يصلى على قتيل هوائى

ثم إنى لما فرغت من قراءة الأشعار ، قالت لجاريتها : هات لى بدلة قماش ثم غيرت ماكان عليها وجلست ، ثم أمرت بإحضار المائدة ، وقالت: بسم الله كل يا أبا الحسن فقلت : لا والله لا أكلت لك طعاما ولا شربت عندك مداما حتى تقضى حاجتى ، فقالت : كان هذا من الأول ، لكن والله قد وقعت من عيننا برواحك إلى الأمير عمرو قبل مجيئك إلينا .

---

(١) غلالة لازوردية : شعار رقيق يلبس تحت الثوب .

فقلت لها : أنا ما رحت ، فقالت : تكون شيخا وتكذب ! أنت ما عبرت عنده ولقيت الطبيب وهو يقول له : كيت وكيت وجرى لك معه كذا وكذا وهذا الكتاب فى طى عمامتك ، وبالأمارة قال لك إن رددت الجواب أعطيتك ألف دينار ، وإن لم ترد لى الجواب أعطتك مائة دينار ، فقلت : ياستى من أعلمك بهذا ، فقلت : أليس القائل يقول :

قلوب العاشقين لها عيون تـرى مـا لا يـراه الناظرونـا

وأنا يا شيخ أبو الحسن أعشق منه وأرى أكثر مما يراه ، فقلت : صدقت يامولاتى كان ذلك ، ثم ناولتها الكتاب ففضته وقرأته ثم إنها مزقته وبصقت عليه وداسته ورمته فى البركة ، فلما رأيت ذلك ، قلت فى نفسى: هذا بذاك وقرض الدين لابد له من وفاء إلا أنه حصل لى بعض غيظ على الألف دينار التى تفوتنى ، فنظرت إلى وعرفت منى ذلك فقالت : ياشيخ أبو الحسن مم غيظك إن كان وعدك بألف دينار فبت الليلة عندى ، وكل، واشرب ، والتذ ، واطرب ، وخذ لك غدا منى ألف دينار ، وامض فى وداعة الله .

فقلت : ياسيدتى يكاد الأمير عمرو أن يموت، فقالت : دعنا من هذا الكلام .ثم إن المائدة حضرت فأكلنا بحسب الكفاية ، فلما فرغنا ، قالت: ياشيخ أتعرف لعب الشطرنج ، قلت : ما ألعب إلا على الحكم والرضا. فقالت : نعم ، ثم دعت بالشطرنج فوضع بين أيدينا ولعبت معها الدست[1] الأول فغلبتنى ، فأمرت الجوارى أن يرمونى فى البركة ، فمسكونى ورمونى فى البركة وضحكت علىّ ساعة ثم أخرجونى وقد

---

(١) الدَّسْتُ : الجولة من لعب الشطرنج .

ابتلت جميع حوائجى ؛ فلما رأتنى على تلك الحالة أمرت ببدلة من القماش من أفخر الملبوس فلبستها ، فقالت : أتلعب أيضا على الحكم والرضا ؟ قلت: نعم فلعبنا فتغايرت عليها وأتيت لها بحكاية لطيفة مضحكة وأشغلتها، وسرقت القطع إلى أن غلبتها ، وتحكمت فيها وقلت :أريد الألف دينار وجواب الكتاب ، فأعطتنى الألف دينار وطلبت الدواة والقرطاس ، ثم إنها أطرقت ساعة ورفعت رأسها كتبت تقول :

ألا يا عمرو كم هذا العناء	وكم هذا التجلد والإذاء
كتبت إلىّ تشكو ما لا تلاقى	من الأسقام إذ نزل القضاء
فسقم لايزال بطول دهر	وداء ما له أبدا دواء
ولو ساعدتنا ياعمرو يوما	لساعدناك إذ نزل البلاء
فعش صبا ومت كمدا حزينا	فواحدة بواحدة جزاء

فلما فرغت ، ناولتنى الورقة قرأتها فقلت : ياستى بالله عليك لا تفعلى وارحمى الأمير عمراً أو اكتبى له غير هذا ، فقالت : ياشيخ أبو الحسن أنت رسول وإلا فضولى ؟ فقلت لها: رسول ، وفضولى ، وطفيلى، ويعظ القطط ، ويحلف أنه ما يبيت إلافى الوسط ، ويغنى بليت بكم .

قال : فضحكت من كلامى ، وقالت: حكمتك فى نفسى ، فقلت : يا ستى بدور أين تلك المحبة التى كنت تحبينها للأمير عمرو ، فلو أبصرتيه ما عرفتيه من شدة ما يقاسى من الأسقام ، والألآم والأمراض ؛ فلما سمعت ذلك قالت : أخبرنى عن أقوى شىء به من المرض فقلت : ياسيدتى ما أقدر أصف لك بعض ما فيه من ألم المرض فتغرغت عيناها بالدموع ، ثم قالت : يعز على ماوصفت لى عنه وروحى لرورحه الفداء ، فالحمد لله

الذى جعل اجتماعنا على يديك .ثم دعت بدرج غير تلك الورقة وكتبت فى أول الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم إنها ابتدأت وتقول :

وصل الكتاب فلا عدمت أناملا عنيت به حتى تضوع طيبا[1]
ففضضته وقرأته فوجدته لخفى أوجاع القلوب طبيبا
فكأن موسى قد أعيد لأمه أو ثوب يوسف قد أتى يعقوبا

المملوكة تقبل الأرض ، وتنهى أن شوقها شديد وغرامها ما عليه من مزيد ومأمولها من الحميد المجيد أن يجمع شملها بك قبل أن تريد وأقول:

أشتاقكم حتى إذا نهض الهوى لمقامكم قعدت بى الأيام
والله إنى لو وصفت صبابتى فنى المداد وقلت الأقلام

ثم إنها نثرت فيها فتات المسك والطيب ، وطوتها وحققتها ، وناولتنى إياها فأخذتها وقمت مسرعا وأنا فرحان إلى أن أتيت دار الأمير عمرو ودخلت الدهليز فسمعته يقول :

ترى حرمت كتب المحبة بيننا أسحر أم القرطاس أصبح غاليا

فاستأذنت عليه ودخلت ، فلما رآنى قال لى : أقمح أم شعير ، فقلت له : قمح مغربل ليس فيه كدر ، ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه ؛ فلما فهم معناه تهلل وجهه بالفرح فبكى وقال :

هجم السرور علىَّ حتى أنه من عظم ماقد سرنى أبكانى
يا عين قد صار البكا لك عادة تبكين فى فرح وفى أحزان

---

(١) تضوع طيبا : انتشرت منه رائحة الطيب .

فلما فرغ من البكاء قال لى : يا شيخ ما أظن الحديد يلين ولا الصخر يذوب لعل أن تكون صنعت هذا الكتاب من عندك ، فقلت : يا مولاى والله ما صنعته ولا كتبته بل هو خطها بيدها فبينما هو يخاطبنى إذا هى عبرت علينا وهى تخطر فى قوامها وهى تنشد وتقول :

نزوركم لا نأخذكم بحفوتكم إن الكريم إذا لم يستزر زارا

فلما رآها الأمير عمرو نهض قائما على قدمية ورمى بروحه عليها واعتنقها واعتنقته ساعة زمانية ، فقمت على أن أخلى لهما المكان ، فقالت الست بدور : إلى أين تروح يا شيخ ، قلت : أخلى لكما المكان ، لأنكما ما اجتمعتما من مدة سنة كاملة ، فقالت : لا تفارقنى من الساعة إلى الصباح فقام الأمير عمرو وأخذنا ومضى بنا إلى مجلس مليح وقدم لنا الطعام المفتخر، وأمر بإزالة كل شيء كان عليه من آلة الحزن وجيء له بالماء فغسل يديه وغلسنا أيدينا وانتقلنا إلى مجلس الشراب وبتنا فى لذة ورأيت الماوية تدب فى وجه الأمير عمرو[1] ، فلما أصبحت قال : ياشيخ أبا الحسن امض وأتنا بالقاضى والشهود ، فلم يكن بأسرع مما أحضرتهم ، فقالت الست بدور للقاضى : اكتب كتابى على الأمير عمرو ، وقد وليت الشيخ أبا الحسن عقد النكاح، فخطب القاضى خطبة النكاح وعقد العقد بينهما ، فرسم الأمير عمرو للقاضى بألف دينار وللشهود بمائتى دينار ، وعمل الوليمة ، وطبخ الطعام وعمل الحلاوات وجمع الناس ، ووضع بين أيديهم الموائد وأطعم الشارد والوارد ، وزفت الست بدور تلك الليلة على الأمير عمرو .

---

(١) رأيت الماوية تدب فى وجه الأمير : كأن الدم جرى فى عروق وجهه .

فلما وقفوا على المنصة ، قلت : ما تصلح إلا لـة ولايصلـح إلا لهـا ، ولو رآها غيره لزلزلت الأرض زلزالها ، ثم تقدمت إلى الأمير عمـرو وقلـت له : يا مولاى ، المثل يقول : العصفور يتفلى والصياد يتقلى وأنتـم تقولـون وا طرباه، وأنا أقول وا حزناه ، فقالت الست بدور : مامعنى كلامك هذا ؟ قلت : ياسيدتى الأمـير عمـرو وعدنـى بوعـد والوعـد على الكرمـاء ديـن ، فقالت الست بدور : صدق الشيخ أعطه الذى وعدته به ، فقال الأمير عمرو لبعض غلمانه أعط الشيخ أبا الحسن ألفا وخمسمائة دينار ، ويستحق والله أكثر من ذلك ، فمضى الغلام وعـاد بسـرعة ومعه كيـس ونـاولنى إيـاه ، واعطتنى الست بدور مثله ، ثم إنـى ودعتهـم وخرجـت إلـى أن أتيـت إلـى الأمير محمد بن سليمان الزينبى ، وقعـدت عنـده على عـادتى ، وأخـذت رسمى الذى لى عليه فى كل سنة ، وعدت إلى بغداد ، فما رأيت سنة أبرك على منها حصل لى فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا جملة الحديث .

فتعجب الخليفة ، وقال : ماقصرت ياشيخ أبو الحسن خذ مـن جعفـر ألف دينار، لأنك أنت الذى أزلت عنى ما بقلبى ، فقال جعفر : ومـن عنـد أمير المؤمنين ألف دينار لأنه هو الذى أزال عنـه ماكـان يجـده ، فقـال أبـو الحسن : صدق الوزير أبقاه الله تعالى ، ثم أنه قبـض الألفـى دينـار ومضـى إلى منزله والله أعلم .

[٨٦] **قال : أبو القاسم عبد الملك بن بدرون فـى شـرحه لقصيـدة عبد المجيد بن عبدون**[1] : جعفر البرمكى هو : جعفر بن يحيى بن خـالد

---

(١) أبو القاسم عبد الملك بن بدرون : أديب أندلسى من أهل شلب . اشتهر بكتابه شرح قصيدة ابن عبدون ، سماه "كمامة الزهر وفريدة الدهر" ، ت[٦٠٨هـ=١٢١١م] =.

بن برمك. والبرمك[1] هو الذى يعمر بيت النور ، وهو بيت النار ، وكان برمك من مجوس بلخ ، وكان عظيم القدر فيهم وولده خالد ، فلما كبر صار وزيراً لأبى السفاح بعد أبى سلمة الخلال[2] ، وقتل هارون الرشيد ، جعفرا سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان قد بلغ من الرشيد ما لا يبلغه وزير من خليفة قبله، حتى كان يجلس معه فى حلة واحدة قد اتخذ لها جيبان ، على ماذكره المخبرون ، حتى بلغ عنده أن يحكم عليه فيما شاء من أمر ماله وولده[3] .

[٨٧] **فمن ذلك ، ماحكاه ابن النهدى** ، [عن] عم الرشيد وهو : إبراهيم المعروف بابن شكلة[4] ، وكانت شكلة أمة سوداء ، وقد ذكر أن إبراهيم كان أسود شديد السواد، وكان من الطبقة العليا فى صنعة العود .

انظر : هدية العارفين (٦٢٧/١) . وصاحب القصيدة المشروحة هو : عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون ، الفهرى اليابرتى ، ذو الوزارتين : أديب الأندلس فى عصره، من وزراء بنى الأفطس . كان عالما بالتاريخ والحديث ، والقصيدة فى رثاء بنى الأفطس ، ت[٥٢٩هـ=١١٣٥م] . انظر : كشف الظنون ص١١١٩ .

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٤٩٢/٣) .

(٢) أبو سلمة الخلال : وزير السفاح ، وقائد عباسى . اغتيل بسبب ميله إلى البرامكة ت[١٣٢هـ=٧٥٠م] .

(٣) تقدمت ترجمة جعفر فقرة ٥٨ .

(٤) إبراهيم بن محمد المهدى ابن عبد الله المنصور العباسى ، ابن شكلة : أخو هارون الرشيد ، ولد ونشأ فى بغداد وولاه الرشيد إمرة دمشق ، ثم عزله عنها بعد سنتين ثم أعاده إليها . ولما انتهت الخلافة إلى المأمون كان إبراهيم قد اتخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدعوة إلى نفسه وبايعه كثيرون ببغداد ، فطلبه المأمون ، فاستتر ، =

قال : قال لى جعفر يوما : يا إبراهيم إذا كان غدا فبكر لى ؛ فلما كان الغد مشيت إليه بكرة ، فجلسنا نتحدث ؛ فلما ارتفع النهار أحضر حجاما فحجمنا ، ثم قدم لنا الطعام فطعمنا ، ثم خلع إلينا ثياب المنادمة ؛ وقال جعفر لخادمة : لايدخل علينا أحد إلا عبد القهرمانى ، فنسى الحاجب ما قال له، فجاء عبد الملك بن صالح الهاشمى[1] ، وكان رجلا من بنى هاشم ذا ملاحة وعلم وحلم، وجلالة قدر ، وفخامة ذكر ، وصيانة وديانة ، فظن الحاجب أنه الذى أمره بإدخاله عليهما .

فلما رآه جعفر تغير لونه ، فقال له عبد الملك بن صالح لما رآهم على تلك الحالة وظهر له أنهم احتشموه أراد أن يرفع خجله وخجلهم بمشاركته لهم فى فعلهم فقال : اصنعوا بنا ماصنعتم بأنفسكم ، فجاء الخادم فطرح عليه ثياب المنادمة ، ثم جلس للشراب ؛ فلما بلغ ثلاثا ، قال للساقى : لتخفف عنى ، فإنى ماشربته قط ، فتهلل وجه جعفر ، فقال له : هل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لما صنعت ؟ قال: بلى، إن أمير المؤمنين علىٌّ غاضب فسله الرضا عنى . قال :

فأهدر دمه فجاءه مستسلما ، فسجنه ستة أشهر ، ثم طلبه إليه وعاتبه على عمله ، فاعتذر فعفى عنه . وأمه جارية سوداء اسمها شكلة ، نسبه إليها خصومه . ت [٢٤٤هـ = ٨٣٩م].

(١) عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى : أمير من بنى العباس ، كان فصيحا ، خطيبا له مهابة ، ولاه الهادى إمرة الموصل [١٦٩هـ] وقام الرشيد بعزله [١٧١هـ] ثم ولاه المدينة ودمشق وأقام فيها أقل من سنة ، وبلغ الرشيد أنه يريد الخلافة فحبسه ببغداد وتُوفى فيها [١٨٧هـ] .

قد رضى عنك أمير المؤمنين . قال : علىَّ أربعة آلاف دينار ، قال : هى لك حاضرة من مال أمير المؤمنين .قال : وابنى إبراهيم أريد أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين قال: قد زوجه أمير المؤمنين بابنته عائشة . قال : وأحب أن تخفق الألوية على رأسه ، قال : نعم قد ولاه أمير المؤمنين مصر، قال إبراهيم بن المهدى : فانصرف عبد الملك بن صالح ، وأنا أتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان .

فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر ، فلم نلبث أن دعا بأبى يوسف القاضى، ومحمد بن واسع ، وإبراهيم بن عبد الملك فعقد له النكاح ، وحملت البدر إلى منزل عبد الملك ، وكتب سجل إبراهيم على مصر . وخرج جعفر فأشار إلىَّ ؛ فلما سار إلى منزله ، ونزلت بنزوله، التفت إلىَّ وقال : لعل قلبك معلق بأمر عبد الملك بن صالح ، فأحببت معرفة خبره ؟ قلت : نعم . قال : إنى لما دخلت على أمير المؤمنين وتمثلت بين يديه وابتدأت القصة من أولها إلى آخرها ، كما كانت قال الرشيد : أحسن والله، ثم قال : ماصنعت ؟ فأخبرته عما سأل ، وبما أجبته فى ذلك ، فقال : أحسنت ، وخرج إبراهيم واليا على مصر فى يومه، والله تعالى أعلم[1] .

[٨٨] **قال إبراهيم بن إسحاق** : كنت منقطعا إلى البرامكة فبينما أنا ذات يوم بمنزلى ، وإذا ببابى يدق فخرج غلامى وعاد ، وقال لى : على الباب فتى جميل يستأذن فأذنت له ، فدخل شاب عليه أثر السقم ، فقال

---

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص ٦٥ .

لى: مدة أحاول لقاءك ، ولى إليك حاجة . فقلت : وماهى ؟ فأخرج ثلثمائة دينار فوضعها بين يدى وقال : أسألك أن تقبلها منى وتصنع لى لحنا فى بيتين قلتهما ، فقلت أنشد نيهما فقال :

بالله يا طرفى الحانى على كبدى ... لتطفئن بدمعى لوعة الحزن
لا لا أبوحن حتى تنزلى سكنى ... فلا أراه ولو أدرجت فى كفنى

قال : فصنعت لهما لحنا يشبه النوح ، ثم غنيته فأغمى عليه حتى أنى ظننت أنه مات ، ثم أفاق وقال : أعده فناشدته الله ، وقلت : أخشى أن تموت ، فقال : ليت ذلك ومازال يخضع ويتضرع حتى رحمته وأعدته ، فصعق صعقة أشد من الأولى ، فلم أشك فى موته ومازالت أنضح عليه من ماء الورد ، حتى أفاق ، ثم جلس فحمدت الله على السلامة ووضعت دنانيره بين يديه ، وقلت : خذ مالك وانصرف عنى ، فقال : لاحاجة لى بها ولك مثلها إن أعدته فشرهت نفسى ، فقلت : أعيده ولكن بثلاثة شروط أولها : تقيم عندى تأكل من طعامى حتى تتقوى نفسك ، الثانى : أن تشرب من الشراب ما يمسك قلبك ، الثالث : أن تحدثنى بحديثك ففعل ذلك، ثم قال : إنى رجل من أهل المدينة خرجت متنزها وقد سال المطر فى العقيق مع إخوانى ، فرأيت فتاة مع فيتات كأنها غصن حلله الندى تنظر بعينين ما ارتد طرفهما إلا بنفس ملاحظهما فأظللن حتى فرغ النهار ، فانصرفن وقد رمت بقلبى جراحا بطيئة الإندمال ، فعدت أتنسم أخبارها ، فلم أجد أحدا يرشدنى إليها فجعلت أتتبعها فى الأسواق ، فلم أقع لها على خير ومرضت أسى ، وحكيت قصتى لذات قرابة لى ، فقالت : لابأس عليك هذه أيام الربيع ما انقضت وستمطر السماء ، فتخرج حينئذ وأنا أخرج معك فافعل مرادك ، قال : فاطمأنت نفسى بذلك إلى أن سال

العقيق وخرج الناس ينظرون فخرجت مع إخوتى وقرابتى ، فجلسنا فى مجلسنا بعينه ، فما لبثنا إلا النسوة كفرسى رهان ، فقلت لذات قرابتى : قولى لهذه الجارية يقول لك هذا الرجل : لقد أحسن من قال :

رمتنى بسهم أقصد القلب وانثنت وقد عاودت جرحا بة وندوبا

قال : فمضت إليها ، وقالت لها : ذلك ، فقالت : قولى له وقد أحسن من أجابه :

بنا مثل ما تشكو فصبراً لعلنا نرى فرجا يشفى القلوب قريبا

قال : فأمسكت عن الكلام خوف الفضيحة ، وقمت منصرفا ، فقامت لقيامى ، فتبعتها قريبتى حتى عرفت منزلها ، ورجعت فأخذتنى وسرنا إليها حتى اجتمعنا واتصل ذلك حتى شاع وظهر وحجبها أبوها ، فلم أزل مجتهدا فى لقائها فلم أقدر وشكوت ذلك إلى أبى فجمع أهلنا ومضى إلى أبيها راغبا فى خطبتها ، فقال : لو بدا له ذلك قبل أن يفضحها لفعلت ، ولكنه أشهرها ، فما كنت لأحقق قول الناس .

قال إبراهيم : فأعدت عليه الصوت وعرفنى منزله ، ثم انصرف وكانت بيننا عشرة . ثم جلس جعفر بن يحيى ، وحضرت على عادتى فغنيته شعر الفتى ، فطرب وشرب أقداحا ، وقال : ويلك لمن هذا الصوت؟ فحدثته حديث الفتى ، فأمرنى بالركوب إليه وأن أجعله على ثقة من بلوغ أربه ؛ فمضيت إليه وأحضرته ، فاستعاد الحديث فحدثه ، فقال : هى فى ذمتى حتى أزوجك إياها فطابت نفسه ، وأقام معنا؛ فلما أصبح ركب جعفر إلى الرشيد وحدثه بذلك فاستظرفه وأمر أن يحضرا جميعا واستعاد

الصوت وشرب عليه ، فأمر بكتب كتاب إلى عامل الحجاز بإحضار المرأة وأهلها ووالدها معجلين إلى حضرته ، والإنفاق عليهم نفقة واسعة فلم يمض إلايسير حتى حضروا فأشار الرشيد بإيصال الرجل إليه فحضر وأمره بتزويج ابنته من الفتى ، وأعطاه ألف دينار ونقلت إلى أهله ؛ ولم يزل الشاب من ندماء جعفر حتى حدث ما حدث ، فعاد الفتى بأهله إلى المدينة فرحم الله تعالى أرواحهم أجمعين .

حكاية أجنبية

[٨٩] [قيل] : مما اتفق أن الوزير أبا عامر أحمد بن مروان ، كان قد أهدى له غلام من النصارى لاتقع العيون على أحسن منه ، فلمحه الملك الناصر ، فقال له : أنّى لك ؟ قال : هو من عند الله ، فقال : تتحفونا بالنجوم وتستأثرون بالأقمار ، فاعتذر إليه ، ثم احتفل فى هدية بعثها إليه مع الغلام ، وقال له : كن داخلا فى جملة الهديّة ، ولولا الضرورة ماسمحت بك نفسى وكتب معه هذه الأبيات:

أمولاى هذا البدر سار لأفقكم ... وللأفق أولى بالبدور من الأرض
أراضيكم بالنفس وهى نفيسة ... ولم أر قبلى من بمهجته يرضى

قال : فحسن ذلك عند الناصر ، وأتحفه بمال جزيل ، وتمكن عنده، ثم بعد ذلك أهديت للوزيرجارية من أجمل نساء الدنيا ، فخاف أن ينهى[1] ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام ، فاحتفل فى هدية أعظم من الأولى وأرسلها مع الجارية ، وكتب معها هذه الأ بيات :

---

(١) يَنْهى ذلك إلى الناصر : أى يبلغه الخبر .

أمولاى هذى الشمس والبدر أولا ... تقدم كيلا يلتقى القمران
قران لعمرى بالسعادة ناطق ... فدم معهما فى كوثر وجنان
فما لهما والله فى الحسن ثالث ... ومالك فى ملك البرية ثانى

قال : فتضاعفت مكانته عنده ، ثم وشى به بعض أعدائه عند الناصر ؛ أن عنده بقية من حب الغلام وأنه لايزال يلهج[1] بذكره حين تحركه الشمول[2] فيقرع السن على تعذر الوصول إليه ، فقال الناصر للواشى ، لاتحرك به لسانك وإلا طار رأسك ، وكتب على لسان الغلام ورقة فيها : يامولاى تعلم أنك كنت لى على الانفراد ولم أزل معك فى نعيم ، وأنا وإن كنت عندالسطان مشاركا فى منزله محاذرا ما يبدو من سطوة الملك ، فتحيل فى استدعائى منه . ثم بعثها مع غلام صغير ، وأوصاه أن يقول : هى من عند فلان ، وأن الملك لم يكلمه قط ، فلما وقف عليها أبو عامر واستخبر الخادم ، أحسن بالمكيدة فكتب على ظهر الورقة يقول :

أمن بعد أحكام التجارب ينبغى ... لدى سقوط العير فى غابة الأسد
ولا أنا ممن يغلب الحب عقله ... ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد
فإن كنت روحى قد وهبتك طائعا ... وكيف ترد الروح إن فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب ، تعجب من فطنته ولم يعد إلى سماع واشٍ فيه بعد ذلك ، ثم قال له : كيف خلصت من الشرك ؟ قال : لأن عقلى بالهوى غير مشترك .

---

(١) يلهج : يولع .

(٢) الشمول : الخمر .